أروع ما قيل في الرثاء

إعداد
إميل ناصيف

دار الجيل
بيروت

أروع ما قيل في الرثاء

أروع ما قيل في الرثاء

إعداد

إميل ناصيف

دار الجيل
بيروت

الطبعَـة الثـانيَـة

المقدمة

الرّثاء فنّ من فنون الشّعر الغنائيّ يُعَبِّر فيه الشاعر عن حزنه وتفجّعه لفقدانِ حبيب. وهو يتلوّن بألوان مختلفة تبعاً للطبيعة والمزاج والمواقف، فإذا غلب عليه البكاء على الرّاحل، وبثّ اللوعة والحزن، كان نَدْباً، وإذا غلب عليه تسجيل الخصال الحميدة التي تمتّع بها الفقيد في حياته، كان تأبيناً. وإذا غلب عليه التأمّل في حقيقة الموت والحياة كان عزاءً. وقد يجتمع الندب والتأبين والعزاء في القصيدة الواحدة.

والرّثاء يقترن بالموت، وليس في العالم أمّة لم تعرف الرّثاء، كما أنّه ليس فيه أمّة لم تعرف الموت، فالرّثاء وُجد عند كلّ الأمم والشّعوب بادية وراقيَةً مُتحضِّرة.

وعرف أدبنا الرّثاء منذ العصر الجاهلي، إذ كانت النساء والرجال جميعاً يندبون الموتى، كما كانوا يقفون على قبورهم مُؤبِّنين لهم مُثْنين على خصالهم. وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت، وأنّ ذلك مصيرٌ محتوم.

وأشهر شعراء الرّثاء في الأدب العربيّ المُهَلْهِل والخنساء في العصر الجاهليّ، وحسّان بن ثابت ومتمّم بن نويرة في عصر صدر الإسلام، وجرير في العصر الأمويّ، والمتنبّي وابن الرومي وأبو تمّام في العصر العباسيّ، والأخطل الصّغير، وحافظ إبراهيم في العصر الحديث.

وقد أثبتُّ في كتابي هذا أروع ما وجدته لهؤلاء الشعراء من قصائد الرّثاء، وضممتُ إلى هذه القصائد أخواتٍ لها لشعراء آخرين لم يقلّوا جودةً في رثائهم عن الشعراء الخالدين الذين سبق ذكرهم.

وآمل أن تُعجب هذه الباقة من قصائد الرثاء التي اخترتها القُراءَ الأعّزاء، فأكون قد وُفِّقت في عملي، وإلّا فحسبي أنّني حاولت، والله وليّ التوفيق.

المؤلّف

من الرثاء في العصر الجاهلي

المهلهِل

هو عديّ بن ربيعة التغلبيّ، وخال الشاعر امرىء القيس، لُقِّب بالزِّير لكثرة مجالسته النساء. كان يقضي أيّامه في اللهو وشرب الخمر. وكان له أخ اسمه وائل، ولقبه كليب، وامرأته جليلة بنت مرّة الشّيباني من بكر، وكان لمرّة عشرة بنين أصغرهم جسّاس. وحدث يوماً أن نزلت خالة جسّاس، واسمها البسوس، على جسّاس، فرمى كليب ناقتها وفصيلها بقوسه، فقتل الفصيل، وراحت الناقة تعجّ. فلمّا رأتها البسوس صاحت: «وا ذلّاه». فقال لها جسّاس: اسكتي، فلكِ بناقتكِ ناقةً أعظم منها». فأبت إلّا رأس كليب. فقتل جسّاس كليباً، وهبّ المهلهل يطلب ثأر أخيه، ونشبت الحرب بين بكر وتغلب، فدامت أربعين سنة ودُعيتْ حرب البسوس. وقد أبدى المهلهل في تلك الحرب شجاعة نادرة، وأُسِر في آخر الأمر، ومات في أسره سنة ٥٣١ م.

للمهلهل ديوان شعر أهمّ ما فيه رثاؤه لأخيه كليب. ورثاؤه مزيج من دمع وحرب، من عاطفة رقّة تنبعث من قلب محبّ، وعاطفة خشونة تنبعث من حالة البراءة والفطرة.

رثاء كليب

أهــاجَ قَــذَاةَ عَـيْـنــيَ الاذّكــارُ
هُـدُوءًا فالـدُّمُوعُ لهـا انحِـدارُ[1]
وصــارَ الليــل مُشْتَمِــلاً عَلَيْنَــا
كــأنّ اللَّيْــلَ ليس لَــهُ نَـهَــارُ
وَبِـتُّ أُرَاقِـبُ الـجَـوْزَاءَ حَـتَّـى
تَقَــارَبَ مِنْ أَوائلها آنحــدارُ[2]
أُصَــرِّفُ مُقْلَتِـي في إِثْــرِ قَــوْمٍ
تَبَــايَنَتِ البــلادُ بِهِمْ فَغَــارُوا[2]
وَأبْـكِي والـنـجــومُ مُــطَلَّعَــاتٌ
كــأنْ لَمْ تَحْـوِهــا عَنّي البِحَــارُ
على مَنْ لــو نُعِيتُ وكــان حَيّــاً
لَقَــادَ الخَيْــلَ يَحجُبُهــا الغُبَــارُ
دَعَــوْتُـكَ يــا كُلَيْبُ فَلَمْ تُجِبْني
وَكَيْفَ يُـجِيبُني البَلَدُ القِـفَــارُ
أجِبْنـي يــا كُـلَيْـبُ خَــلاَكَ ذَمٌّ
ضَنِينَــاتُ النُّفُـوسِ لهــا مَــزَارُ
أجِبْني يــا كُلَيْـبُ خَــلاَكَ ذَمٌّ
لَقَــدْ فُجِعَتْ بِـفَــارِسِهــا نِــزَارُ

---

(١) القذاة: ما يخرج من العين الرمداء. هدوءاً: في هدأة الليل، سكونه.

(٢) الجوزاء: برج في السماء.

سَقَــاكَ الغَيْثُ إنّـكَ كُنْتَ غَيْثـاً
وَيُسْـراً حيـن يُلْتَـمَسُ اليســارُ
أبَتْ عَيْنَــايَ بَعْــدَكَ أنْ تَـكُفَّــا
كـأنّ غَضى القَتَـادِ لهـا شِفَـارُ(١)
وإنَّــكَ كُنْتَ تَحْلُمُ عَنْ رِجــالٍ
وَتَـعْفُــو عَـنْهُـمُ ولَـكَ آقْـتِـدَارُ

المهلهل

(١) الغَضَى: نوع من الشجر. القتاد: الشوك. الشفار: منابت أهداب العين.

الخنساء

هي أمّ عمرٍو بنت عمرو بن الشّريد السّلميَّة الملقّبة بالخنساء. ولدت نحو سنة ٥٧٥ م، ونشأت في بيت ثروة وجاه. وكان لهـا أُخَوان: معـاوية وصخر، وكان صخر يعطف عليها بنوعٍ خاصّ، فقُتِلا كلاهما. وكان لمقتلهما صدى بعيد في نفسها، فبكت حتّى تقرَّحت مقلتاها، بل حتّى عميت، وذاب قلبها التياعاً، ورثتهما بشعر رقيق، وخَصَّت صخراً بالقسم الأكبر منه. وقد أدركت الإسلام فاعتنقته مع بنيها، وكانت وفاتها سنة ٦٦٤ م.

لها ديوان شعر كلّه في رثاء أخويها، ولا سيّما صخر، يشعر من يقرأه أنّه في مأتم يسمع فيه عويل النائحات، وندب النادبات. هو ديـوان امرأة أُصيبت في الصميم، وفقـدت من تُحبّ ومن كـان للحـرب سيفـاً بتّـاراً، وللمجالس سيّداً مختاراً، وللقرى والضّيافة نحّاراً، وللنجدة فارساً مغواراً. وهي، في رثائها، تتمثّل أبداً أخاها وتخاطبه، وتصوّره بحبّ أخويّ صادق، وتبكي ولا تملّ من مخاطبة العينين تسألهما الدمع، والعينان تجيبان، وإذا الدمع نار في هشيم، وإذا اللوعة أبداً في ازدياد. وفيما يلي بعض النماذج من رثائها.

رثاء صخر

يُــؤَرِّقُني آلتَّــذَكُّــرُ حِينَ أُمْسِي
فَـأُصْبِحُ قَـدْ بُلِيتُ بِفَـرْطِ نُكْسِ
عَلَى صَخْــرٍ، وَأَيُّ فَتًى كَصَخْـرٍ
لِيَـوْمٍ كَرِيهَـةٍ وَطِعَانِ خَلْسِ؟(1)
فَــلَمْ أَرَ مِــثْــلَهُ رُزْءاً لِــجِــنٍّ،
وَلَــمْ أَرَ مِــثْــلَهُ رُزْءًا لإِنْسِ(2)
يُـذَكِّرُنِي طُلُوعُ آلشَّمْسِ صَخْـراً
وَأَذْكُــرُهُ لِكُـلِّ غُــرُوبِ شَمْسِ
وَلَــوْلاَ كَثْــرَةُ آلْبَــاكِينَ حَــوْلِي
عَلَى إِخْــوَانِهِمْ، لَقَتَلْتُ نَفْسِي!
وَلَــكِــنْ لاَ أَزَالُ أَرَى عَــجُــولاً
وَبَــاكِيَـةً تَنُــوحُ لِيَـوْمِ نَحْسِ(3)
أَرَاهَــا وَالِـهــاً تَبْـكِي أَخَــاهَــا
عَـشِيَّــةَ رُزْئِــهِ، أَوْ غِـبَّ أَمْسِ
وَمَــا يَبْكِينَ مِثْــلَ أَخِي، وَلَـكِنْ
أُعَـزِّي آلنَّفْسَ عَنْـهُ بِـآلتَّـأَسِّي(4)
فَــلاَ، وَآلــلَّهِ لاَ أَنْسَــاكَ حَـتَّـى
أُفَــارِقَ مُـهْجَـتِي وَيُـشَقَّ رَمْـسِي

---

(1) طعان خلس: أي طعان فيه إعجال وشجاعة وحذر.

(2) الرزء: المصيبة.

(3) العجول: الثكلى الشديدة الحزن من النساء.

(4) التأسي: التصبر.

فَقَدْ وَدَّعْتُ، يَوْمَ فِرَاقِ صَخْرٍ
أَبِي حَسَّانَ، لَذَّاتِي وَأُنْسِي
فَيَا لَهْفِي عَلَيْهِ وَلَهْفَ أُمِّي
أَيُصْبِحُ فِي ٱلضَّرِيحِ وَفِيهِ يُمْسِي!

قذًى بعينك

قَذًى بِعَيْنِكَ أَمْ بِٱلْعَيْنِ عُوَّارُ أَمْ
ذَرَّفَتْ أَنْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا ٱلدَّارُ؟(١)
كَأَنَّ عَيْنِي لِذِكْرَاهُ، إِذَا خَطَرَتْ
فَيْضٌ يَسِيلُ عَلَى ٱلْخَدَّيْنِ، مِدْرَارُ
تَبْكِي لِصَخْرٍ، هِيَ ٱلْعَبْرَى، وَقَد وَلِـ
ـهَتْ وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ ٱلتُّرْبِ أَسْتَارُ(٢)
تَبْكِي خُنَاسُ، فَمَا تَنْفَكُّ، مَا عَمَرَتْ،
لَهَا عَلَيْهِ رَنِينٌ، وَهْيَ مِفْتَارُ(٣)
تَبْكِي خُنَاسُ عَلَى صَخْرٍ، وَحُقَّ لَهَا،
إِذْ رَابَهَا ٱلدَّهْرُ إِنَّ ٱلدَّهْرَ ضَرَّارُ
لَا بُدَّ مِنْ مِيتَةٍ فِي صَرْفِهَا غِيَرُ
وَٱلدَّهْرُ فِي صَرْفِهِ حَوْلٌ وَأَطْوَارُ(٤)

---

(١) العوار: رمد العين. أن خلت: أي لأن خلت.

(٢) العبرى: التي لا تجف دموعها. ولهت: اشتدّ جزعها. الأستار: طبقات التراب فوق الميت.

(٣) المفتار: المنكسرة.

(٤) في صرفها: في حدوثها وتصرفها. غير الدهر: نوائبه. الحول: التحول.

قَـدْ كَـانَ فِـيكُـمْ أَبُـو عَـمْـرٍو يَـسُـودُكُـم
نِـعْـمَ ٱلْـمُـعَـمَّـمُ، لِـلدَّاعِـيـنَ نَـصَّـارُ(١)

صُـلْـبُ ٱلـنَّـحِـيـزَةِ، وَهَّـابٌ، إِذا مُـنِـعُـوا
وَفِي ٱلْحُـرُوبِ جَـرِيءُ ٱلصَّـدْرِ مِهْصَـارُ(٢)

يَـا صَـخْـرُ وَرَّادَ مَـاءٍ قَـدْ تَـنَـاذَرَهُ
أَهْـلُ ٱلْـمَـوَارِدِ، مَـا فِـي وِرْدِهِ عَـارُ(٣)

مَـشَى ٱلـسَّـبَـنْـتَى إِلَـى هَـيْـجَـاءَ مُـعْـضِـلَةٍ
لَـهُ سِـلاَحَـانِ: أَنْـيَـابٌ وَأَظْـفَـارُ(٤)

وَإِنَّ صَـخْـرًا لَـوَالِـيـنَـا وَسَـيِّـدُنَـا
وَإِنَّ صَـخْـرًا، إِذَا نَشْـتُـو، لَـنَـحَّـارُ(٥)

وَإِنَّ صَـخْـرًا لَـمِـقْـدَامٌ إِذَا رَكِـبُـوا
وَإِنَّ صَـخْـرًا، إِذَا جَـاعُـوا، لَـعَـقَّـارُ(٦)

أَغَـرُّ أَبْـلَـجُ، تَـأْتَـمُّ ٱلْـهُـدَاةُ بِـهِ
كَـأَنَّـهُ عَـلَـمٌ فِـي رَأْسِـهِ نَـارُ(٧)

---

(١) المعمم: المسود.
(٢) النحيزة: الطبيعة. المهصار: الكثير الدق للأعناق.
(٣) وزاد ماء: أرادت إقدامه على الموت. تناذره: أنذر بعضهم بعضاً بصعوبته وهوله. أهل الموارد: أي الأبطال.
(٤) السبنتى: النمر. الهيجاء المعضلة: الحرب الشديدة.
(٥) نشتو: ندخل في الشتاء.
(٦) العقار: من عقر الإبل أي حصد قوائمها بالسيف لكيلا تشرد وقت النحر.
(٧) الأغرّ: الكريم والشريف. الأبلج: المشرق الوجه.

جَلْدٌ، جَمِيلُ ٱلْمُحَيَّا كَامِلٌ وَرِعٌ
وَلِلْحُرُوفِ، غَدَاةَ ٱلرَّوْعِ ، مِسْعَارُ[1]

حَمَّالُ أَلْوِيَةٍ، هَبَّاطُ أَوْدِيَةٍ
شَهَّادُ أَنْدِيَةٍ، لِلْجَيْشِ جَرَّارُ

وَلَا تَرَاهُ، وَمَا فِي ٱلْبَيْتِ، يَأْكُلُهُ
لَكِنَّهُ بَارِزٌ بِٱلصَّحْنِ مِهْمَارُ[2]

قَدْ كَانَ خَالِصَتِي مِنْ كُلِّ ذِي نَسَبٍ
فَقَدْ أُصِيبَ، فَمَا لِلْعَيْشِ أَوْطَارُ[3]

---

(١) الجلد: الصبور. الورع: المجنب لما فيه إثم. الروع: الخوف والحرب. المسعار: موقد نار الحرب.

(٢) المهمار: الكثير البذل.

(٣) خالصتي: من يخلص الي المودة.

من الرثاء في العصر الإسلامي والأموي

متمّم بن نويرة

هـو متمم بن نـويـرة بن جمـرة اليـربـوعي التميميّ (. . . - نحـو ٣٠ هـ/نحو ٦٥٠ م) شاعر فحل، صحابيّ، من أشراف قومه، اشتهـر في الجاهلية والإسلام. قُتِل أخوه مالك في حرب الرِّدّة، فرثاه رثاءً حارًّا، وظلّ يبكيه حتّى ابيضّت عيناه من الحزن، وحتّى أسخط عمر بن الخطاب على ما كان من قتل خالد بن الوليد له، وصار ندبه لأخيه مصيرَ الأمثال، ومن بديع قوله فيه:

لَقَـدْ لامَني عِنْـدَ القُبـورِ علـى البُكـا
صَـديقي لتَذْرافِ الـدّمـوعِ السَّـوافِكِ
يَـقـولُ: أَتَبْـكي كُـلَّ قَـبْـرٍ رَأَيْتَـهُ
لِقَبْـرٍ ثَـوَى بينَ اللِّوى فـالـدَّكـادِكِ
فقُلْتُ لَـهُ: إنَّ الشَّجَـى يَبْـعَثُ الشَّجَـى
فَـدَعْني، فَـهَـذا كُلُّهُ قَـبْـرُ مـالِـكِ

* * *

أَبَـى الـصَّـبْـرَ آيـاتٌ أَراهـا وَإنَّـنـي
أَرَى كُـلَّ حَبْـلٍ بَعْـدَ حَبْلِكَ أَقْـطَعـا[1]

(١) أقطع: مقطوع.

وَإنِّي مَتَى ما أدْعُ باسْمِكَ لا تُجِبْ
وَكنتَ حَرِيًّا أنْ تُجِيبَ وَتَسْمَعَا
تَحِيَّتُهُ مِنِّي وَإنْ كانَ نائِياً
وَأمْسَى تُراباً فوقَهُ الأرْضُ بَلْقَعا[1]
فإنْ تَكُنِ الأيَّامُ فَرَّقْنَ بَيْنَنا
فَقَدْ بانَ[2] مَحْمُوداً أخي حِينَ وَدَّعا
وكُنّا كَنَدْمانَيْ جَذِيمَةَ حِقْبَةً
مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ: لَنْ يَتَصَدَّعا[3]
فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأنِّي ومالكاً
لِطُولِ اجْتِماعٍ لَمْ نَبِتْ لَيلَةً معا
ولو أنّ ما ألْقَى أصابَ مُتالِعاً
أوِ الرُّكْنَ مِنْ سَلْمَى إذَنْ لَتَضَعْضَعا[4]

(١) بلقع: أرض قفر.
(٢) بان: فارق.
(٣) جذيمة هو جذيمة الأبرش نادَمَ مالكاً وعقيلاً ابني فارج بن كعب ثمّ قتلهما. يتصدّعا: يتفرّقا.
(٤) متالع وسلمى: جبلان.

حسّان بن ثابت الأنصاريّ

هو حسّان بن ثابت الأنصاري (... ـ ٥٤ هـ/ ٦٧٤ م) الصّحابيّ، شاعر النبيّ ﷺ. عاش ستين سنة في الجاهليَّة، ومثلها في الإسلام. قال أبو عبيدة: فضل حسّان الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار في الجاهليَّة، وشاعر النبيّ في النبوّة، وشاعر اليمانيِّين في الإسلام.

من أهم قصائده تلك التي رثى بها الرسول ﷺ، وفيما يلي بعض أبياتها:

رِثَاءُ الرّسُول

بِطَيْبَةَ رَسْمٌ لِلرَّسُولِ وَمَعْهَدُ
مُنِيرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمَدُ(١)

وَلَا تَنْمَحي الآيَاتُ من دَارِ حُرمَةٍ
بِها مِنْبَرُ آلهادي آلَّذِي كانَ يَصْعَدُ(٢)

(١) طيبة: هي مدينة النبي، وهو، صلوات الله عليه، الذي سمّاها بذلك. المعهد: المنزل الذي لا يزال القوم إذا انتأوا عنه رجعوا إليه. الهمود: البلى في كل شيء.

(٢) الآيات: جمع آية وهي العلامة، وقوله «الذي كان يصعد» أي المنبر الذي كان يصعده الهادي صلوات الله عليه.

وَواضِحُ آيَاتٍ وَبَاقِي مَعَالِمِ
وَرَبْعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلًّى وَمَسْجِدُ
بِهَا حُجُرَاتٌ كَانَ يَنْزِلُ وَسْطَهَا
مِنَ ٱللَّهِ نُورٌ يُسْتَضَاءُ وَيُوقَدُ(١)
مَعالِمُ لَمْ تُطْمَسْ عَلَى ٱلْعَهْدِ آيُهَا
أَتَاهَا ٱلْبِلَى فالآيُ مِنْهَا تَجَدَّدُ(٢)
عَرَفْتُ بِهَا رَسْمَ الرَّسُولِ وعَهْدَهُ
وقَبْراً بِهِ وَارَاهُ في التُّرْبِ مُلْحِدُ
ظَلِلْتُ بِهَا أَبْكِي الرَّسُولَ فَأَسْعَدَتْ
عُيُونٌ وَمِثْلاهَا مِنَ ٱلْجَفْنِ تُسْعِدُ(٣)
تَذَكَّرُ آلاءَ الرَّسُولِ وَمَا أَرَى
لَهَا مُحْصِياً نَفْسِي فَنَفْسِي تَبَلَّدُ(٤)
مُفَجَّعَةٌ قَدْ شَفَّهَا فَقْدُ أَحْمَدِ
فَظَلَّتْ لِآلاءِ الرَّسُولِ تُعَدِّدُ(٥)

---

(١) الحجرات: جمع حجرة يعني مساكن السيد الرسول.

(٢) لم تطمس: لم تتغيّر. آيها: أي إن آياتها لا تزال على ما تعهد. الآي منها تجدّد: أي تتجدّد، ولعل المراد بالآي ههنا آيات الذكر الحكيم.

(٣) فأسعدت عيون: أي فأعانتني عيوني وساعدتني فآتتني بالدموع لمكان اللوعة مني. وقوله «ومثلاها من الجفن» جفن العين غطاء العين من أعلى وأسفل، والمراد بالجفن هنا العين نفسها. يقول: ومثل عيني تؤاتي بالدمع.

(٤) قوله «تذكّر» بحذف احدى التاءين: أي تتذكّر، والفاعل قوله: «نفسي». وقوله «تبلّد» إنّما هو تتبلّد بحذف إحدى التاءين كذلك، وتتبلّد: أي تلحقها حيرة، والتبلّد أيضاً نقيض التجلّد، وهو استكانة وخضوع.

(٥) مفجّعة: يقال فجّعته المصيبة وفجّعته: أوجعته فهو مفجع أي موجع، والفاجعة الرزيّة =

وَمَـا بَلَغتْ مِنْ كُـلِّ أَمْـرٍ عَشِيرَهُ
وَلَكِنَّ نَفْسِي بَعْضَ ما فِيهِ تَحْمَدُ[(١)]
أَطَالَتْ وُقُوفاً تَذْرِفُ العَيْنُ جُهْدَها
على طَلَلِ ٱلْقَبْرِ ٱلَّذِي فِيهِ أَحْمَدُ
فَبُورِكْتَ يا قَبْرَ الرَّسُولِ وبورِكَتْ
بِلادٌ ثَوَى فيهَا الرَّشِيدُ المُسَدَّدُ[(٢)]

=الموجعة التي تفجع الإنسان بما يعزّ عليه من مال أو حميم. شفّه عليه الحزن والهمّ: لذع قلبه وأضمره وهزله حيث رقّ. وهو من قولهم شفّ الثوب إذا رقّ حتى يصف جلد لابسه تعدّد مضارع عدد أي عدّ.

(١) العشير: في الأصل كالعشر: الجزء من أجزاء العشرة، وجمع العشير أعشراء مثل نصيب وأنصباء وقوله بعض ما فيه أي بعض ما في كل أمر.

(٢) المسدّد: يُقال سدّده الله وفّقه للسداد وهو الصواب والقصد من القول والعمل.

جرير

هو أبو حرزة جرير بن عطيّة (٣٣ هـ/ ٦٥٣ م - ١١٤ هـ/ ٧٣٣ م) اشتهر بالهجاء، وراح يرمي به الخصوم قويًّا شديد اللهجة، فذاع صيته، وردّدت اسمه الركبان. نشبت بينه وبين الفرزدق حرب هجائيَّة دامت خمسين سنة، كان الشاعر منهما ينظم القصيدة ويبعث بها إلى خصمه، فينقض الخصم ما قيل فيها بقصيدة ينظمها على الوزن نفسه، والقافية نفسها. وسمِّيت تلك القصائد «النقائض».

له ديوان شعر في المدح، والرثاء، والغزل، والهجاء. ورثاء جرير سواء أكان في ذويه أم في غيرهم، هو رثاء من يشعر بالمصيبة شعوراً عميقاً، فينهدُّ لها كيانه، ثم يطلق اللسان فيما يفيض من القلب، وإذا اللسان ترجمان النفس، والألفاظ أنفاس حارّة، وإذا الشعر يسيل سيلان الدموع المنهمرة، في انسجام، وسهولة، ورقّة؛ وإذا أمامك مشهد مؤلم، هو مشهد تتراءى فيه ذكريات الرجل أحبّةً وصفاتٍ محبّبة إلى كل نفس، وأعمالاً غرّاء؛ وإذا الشاعر ينطلق بين المناجاة، والنداء، ومخاطبة الميت، والأخبار، رائع الأسلوب، عجيب السلاسة؛ وإذا الزفرات المتصاعدة أدعيّة واستلفاتاً تقف بين المقطع والمقطع، وبين الفكرة والفكرة، شرارات تعصر القلوب وتستقطر الجفون.

ومن قصيدة طويلة وجّهها إلى خصمه الفرزدق هاجياً، افتتحها برثاء امرأته، فقال:

رثاء امرأته

لَـوْلاَ ٱلْـحَيَـاءُ، لَـعَـادَنِي ٱسْـتِـعْـبَـارُ،
وَلَـزُرْتُ بَـيْـتَـكِ، وَٱلْـحَـبِـيـبُ يُـزَارُ[1]

وَلَـقَـدْ نَـظَرْتُ، وَمَـا تَـمَـتُّـعُ نَـظْرَةٍ
فِي ٱللَّحْـدِ حَيْثُ تَـمَكَّـنَ ٱلْمِـحْفَـارُ[2]

وَلَّـهْـتِ قَـلْبِي، إِذْ عَـلَتْنِـي كَـبْـرَةٌ،
وَذَوُو ٱلـتَّـمَـائِمِ مِنْ بَـنِيـكِ صِـغَـارُ[3]

أَرْعَى ٱلنُّجُـومَ، وَقَـدْ مَضَتْ غَـوْرِيَّـةٌ،
عُـصَـبُ ٱلـنُّـجُـومِ كَـأَنَّـهُـنَّ صُـوَارُ[4]

نِـعْمَ ٱلْـقَـرِيـنُ، وَكُـنْـتِ عِـلْقَ مَـضَـنَّـةٍ
وَأَرَى بِـنَـعْـفِ بُـلَيَّـةَ ٱلأَحْـجَـارُ[5]

عَـمَـرَتْ مُكَـرَّمَـةَ ٱلْـمَسَـاكِ وَفَـارَقَـتْ
مَـا مَـسَّـهَـا صَـلَفٌ وَلاَ إِقْـتَـارُ[6]

---

(١) استعبار: بكاء. بيتك: قبرك.
(٢) المحفار: آلة الحفر.
(٣) ولهة: حزينة أشدّ الحزن. التمائم ج تميمة وهي خرزة أو عوذة تُعلَّق في عنق الولد د للأخطار.
(٤) الغورية: التي تأخذ الغور للغروب والسقوط. العصب: الجماعات. الصوار: قطيع الوحش.
(٥) العلق: النفيس من كل شيء. المضنة: ما يضن به. النعف: أسفل الجبل وأعلى الواد: بلية: اسم موضع.
(٦) الصلف: الكبرياء. الاقتار: العسر.

فَسَقَى صَدَى جَدَثٍ، بِبُـرْقَةِ ضَـاحِكٍ
هَـزِمٌ أَجَشُّ، وَدِيـمَـةٌ مِـدْرَارُ(١)
هـزِمٌ أَجَشُّ، إِذَا آسْـتَـحَـارَ بِـبَـلْدَةٍ
فَـكَـأَنَّـمَـا بِـجِـوَائِـهَـا ٱلأَنْـهَـارُ(٢)
مُـتَـرَاكِـمٌ زَجِـلٌ يُـضِـيءُ وَمِـيـضُـهُ
كَـٱلْبُلْقِ تَـحْـتَ بُـطُونِـهَـا ٱلأَمْـهَـارُ(٣)
كَـانَـتْ مُكَـرَّمَـةَ ٱلْعَشِيـرِ وَلَـمْ يَكُـنْ
يَـخْـشَـى غَـوَائِـلَ أُمِّ حَـزْرَةَ جَـارُ(٤)
وَلَـقَـدْ أَرَاكِ كُسِيـتِ أَجْـمَـلَ مَـنْـظَرٍ،
وَمَـعَ ٱلْـجَـمَـالِ سَـكِـيـنَـةٌ وَوَقَـارُ
وَٱلـرِّيـحُ طَـيِّـبَـةٌ إِذَا آسْـتَـقْـبَـلْتِـهَـا
وَٱلْـعِـرْضُ لَا دَنِسٌ وَلَا خَـوَّارُ(٥)
وَإِذَا سَـرَيْـتُ، رَأَيْـتُ نَـارَكِ نَـوَّرَتْ
وَجْـهـاً أَغَـرَّ، يَـزِيـنُـهُ ٱلإِسْـفَـارُ
صَـلَّى ٱلْـمَـلَائِـكَـةُ ٱلَّـذِيـنَ تُـخُـيِّـرُوا
وَٱلـصَّـالِـحُـونَ عَـلَيْـكِ، وَٱلأَبْـرَارُ

---

(١) الصدى: كان العرب يعتقدون بأنه يخرج من رأس القتيل طير يسمونه «صدى» يظل عطشان يصيح «اسقوني» حتى يؤخذ بثأره. الهزم: السحاب الراعد. الأجش: الغليظ الصوت من الرعد. برقة ضاحك: اسم موضع.

(٢) الجواء ج جو وهو الناحية والجهة.

(٣) زجل: ذو جلبة، البلق ج أبلق وهو ما كان في لونه سواد وبياض.

(٤) الغوائل: المصائب.

(٥) الخوار: الضعيف.

وَعَلَيْكِ مِنْ صَلَوَاتِ رَبِّكِ كُلَّمَا
نَصِبَ ٱلْحَجِيجُ مُلَبِّدِينَ، وَغَارُوا(١)
يَا نَظْرَةً لَكِ، يَوْمَ هَاجَتْ عَبْرَةً
مِنْ أُمِّ حَزْرَةَ، بِٱلنُّمَيْرَةِ دَارُ
تُحْيِي ٱلرَّوَامِسُ رَبْعَهَا، فَتُجِدُّهُ
بَعْدَ ٱلْبِلَى، وَتُمِيتُهُ ٱلأَمْطَارُ(٢)
وَكَأَنَّ مَنْزِلَةً لَهَا، بِحُلاَحِلٍ
وَحْيُ ٱلزُّبُورِ تُجِدُّهُ ٱلأَحْبَارُ(٣)
لاَ تُكْثِرَنَّ، إِذَا جَعَلْتَ تَلُومُنِي،
لاَ يَذْهَبَنَّ بِحِلْمِكَ ٱلإِكْثَارُ
كَانَ ٱلْخَلِيطُ هُمُ ٱلْخَلِيطُ، فَأَصْبَحُوا
مُتَبَدِّلِينَ، وَبِٱلدِّيَارِ دِيَارُ
لاَ يَلْبَثُ ٱلْقُرَنَاءُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا
لَيْلٌ يَكُرُّ عَلَيْهِمِ وَنَهَارُ!

رثاء ابنه

[وقال يرثي ابنه سوادة وقد توفي بالشام]:

قَالُوا: نَصِيبُكَ مِنْ أَجْرٍ فَقُلْتُ لَهُمْ
مَنْ لِلْعَرِينِ، إِذَا فَارَقْتُ أَشْبَالِي؟

---

(١) نصب: تعب. الحجيج ج حاج. ملبدين: مقيمين. غار الرجل: نام.
(٢) الروامس: الرياح.
(٣) الزبور: المزامير. تجده: تكتبه فتحكمه.

لَكِنْ سَوَادَةُ يَجْلُو مُقْلَتَيْ لَحِمٍ
بَازٍ، يُصَرْصِرُ فَوْقَ ٱلْمَرْقَبِ ٱلْعَالِي(١)
قَدْ كُنْتُ أَعْرِفُهُ مِنِّي، إِذَا غَلِقَتْ
رُهْنُ ٱلْجِيَادِ، وَمَدَّ ٱلْغَايَةَ ٱلْغَالِي(٢)
إِلَّا تَكُنْ لَكَ بِٱلدَّيْرَيْنِ بَاكِيَةٌ
فَرُبَّ بَاكِيَةٍ بِٱلرَّمْلِ مِعْوَالِ
كَأُمِّ بَوٍّ عَجُولٍ، عِنْدَ مَعْهَدِهِ،
حَنَّتْ إِلَى جَلَدٍ مِنْهُ وَأَوْصَالِ(٣)
تَرْتَاعُ مَا نَسِيَتْ، حَتَّى إِذَا ذَكَرَتْ، رَدَّتْ
هَمَاهِمَ، حَرَّى ٱلْجَوْفِ، مِثْكَالِ(٤)
زِدْنَا عَلَى وَجْدِهَا وَجْداً، وَإِنْ رَجَعَتْ،
فِي ٱلْقَلْبِ مِنْهَا خُطُوبٌ ذَاتُ بَلْبَالِ(٥)
فَارَقْتَنِي، حِينَ كَفَّ ٱلدَّهْرُ مِنْ بَصَرِي،
وَحِينَ صِرْتُ كَعَظْمِ ٱلرِّمَّةِ ٱلْبَالِي(٦)
إِنَّ ٱلثَّوِيَّ بِذِي ٱلزَّيْتُونِ، فَٱحْتَسِبِي،
قَدْ أَسْرَعَ ٱلْيَوْمَ فِي عَقْلِي وَفِي حَالِي(٧)

---

(١) باز لحم: يأكل اللحم أو يشتهيه. صرصر البازي: صات. المرقب: الموضع المشرف يعلوه الرقيب.
(٢) غلق الرهن: صار ملك المرتهن.
(٣) البو: ولد الناقة، إذا مات يحشى جلده تبناً فيقرب من أمه، فتخدع وتعطف عليه وتدرّ. الجلد بفتح الجيم واللام: الجلد بكسر الجيم وسكون اللام.
(٤) الهماهم: الأصوات مع بحّة. المثكال: الكثيرة الثكل.
(٥) البلبال: الهم والوسوسة.
(٦) الرمة: ما بلي من العظام.
(٧) الثوي: الميت.

في رثاء معن بن زائدة

كان معن بن زائدة (. . . ـ ١٥١ هـ/ ٧٦٨ م) من أشهر أجواد العرب، وأحد الشجعان الفصحاء، والولاة المشهورين. عندما توفّي رثاه عدد من الشعراء من بينهم مروان بن أبي حفصة، والحسين بن مطير. قال ابن أبي حفصة في رثائه:

مَضَى لِسَبِيلِهِ مَعْنٌ وَأَبْقَى
مَكَارِمَ لَنْ تَبِيدَ وَلَنْ تُنَالا
كَأَنَّ ٱلشَّمْسَ يَوْمَ أُصِيبَ مَعْنٌ
مِنَ الإظْلامِ مُلْبَسَةٌ ظِلالا
هُوَ ٱلْجَبَلُ الذي كانَتْ نِزارٌ
تَهُدُّ مِنَ ٱلْعَدُوِّ بِهِ الجِبَالا
وَعُطِّلَتِ الثُّغُورُ لِفَقْدِ مَعْنٍ
وَقَدْ يَرْوِي بها الأَسَلَ النِّهالا[١]
وَأَظْلَمَتِ العِراقُ وأَوْرَثَتْها
مُصِيبَتُهُ المجلِّلَة آعْتِلالا
وَظَلَّ الشَّامُ يَرْجُفُ جَانِبَاهُ
لِرُكْنِ العِزِّ حِينَ وَهَى فَمَالا
وَكادَتْ مِنْ تُهامَةَ كُلُّ أَرْضٍ
وَمِنْ نَجْدٍ تَزُولُ غَداةَ زالا
فإنْ يَعْلُ البِلَادَ لَهُ خُشُوعٌ
فَقَدْ كانَتْ تَطُولُ بِهِ آخْتِيالا

(١) الثغور: الأماكن المحصنّة على الحدود: الأسل النهال. الرماح العطاش.

أصابَ الموتُ يَـوْمَ أصَاب مَعْنـاً
مِـنَ الأحْيـاءِ أكْـرَمَـهُمْ فَـعَـالا
وكـانَ النَّـاسُ كُلُّهُـمُ لِـمَـعْـنٍ
إلـى أنْ زارَ حُـفْـرَتَـهُ عِـيَـالا
وَلَمْ يَـكُ طـالبٌ لِلْعُـرْفِ يَنْـوِي
إلى غَيْـرِ آبْنِ زائـدَةَ آرْتِحـالا[1]
مَضَى مَنْ كانَ يَحْمِلُ كُـلَّ عِبْءٍ
وَيَسْبِـقُ فَضْـلُ نَـائِلِهِ السُّـؤالا
وَمـا كَـانَتْ تَجِفُّ لَـهُ جِيَـاضٌ
مِنَ المعـروفِ مُتْـرَعَـةٌ سجـالا
مَضَى لِسَبِيلِهِ مَنْ كُنْـتَ تَـرْجُـو
بِـهِ عَثَـراتِ دَهْـرِكَ أنْ تُقـالا
فَلَسْتَ بمـالـكٍ عَبَـراتِ عَـيْنٍ
أبَتْ بِـدُمُـوعِهـا إلاّ آنْـهِمَـالا
وَقُلْنـا أيْنَ نَـرْحَـلُ بَعْـدَ مَعْنٍ
وَقَـدْ ذَهَبَ النَّـوَالُ فـلا نَـوَالا؟
سَيَـذْكُـرُكَ الخَلِيفَـةُ غَيْـرَ قَـالٍ
إذا هُـوَ في الأُمورِ بـلا الـرِّجـالا
ولا يَـنْسَـى وَقَـائِعَـكَ الـلَّوَاتِي
على أعْـدَائِـهِ جُعِـلَتْ وَبَـالا.

---

(١)العرف: العمل الطيّب.

وقال الحسين بن مطير:

أَلِــمَّــا عــلى مَــعْــنٍ وَقُــولا لِــقَــبْــرِهِ
سَقَتْــكَ الغَــوَادِي مَــرْبَعــاً ثُــمَّ مَــرْبَعَــا

فَــيَــا قَــبْــرَ مَــعْــنٍ كَــيْــفَ وارَيْــتَ جُــودَهُ
وَقَــدْ كَــانَ مِنــه البَحْــرُ والبَــرُّ مُتْــرَعَــا

وَيــا قَــبْــرَ مَــعْــنٍ أنْــتَ أوَّلُ حُــفْــرَةٍ
مِنَ ٱلأَرْضِ خُــطَّتْ للمكــارِمِ مَضْجَعَــا

بَلَى قَــد وَسِعْتَ الجــودَ والــجــودُ مَيِّــتٌ
ولــو كــانَ حَيّــاً ضُقْتَ حتَّــى تَصَــدَّعــا

فَتًى عِــيشَ في مَــعْــرُوفِــهِ بَعْــدَ مَــوْتِــهِ
كمــا كــانَ بَعْــدَ السَّيْــلِ مَجْــرَاهُ مَــرْتَعَــا

ولمّــا مَضَى مَعْنٌ مَضَى الجُــودُ وَٱنْقَضَى
وَأَصْبَــحَ عِــرْنينُ المكــارم أجْــدَعــا(١)

(١) العرنين: الأنف. جدع أنفه: أي أذّله.

من الرثاء في العصر العباسي

أبو تمّام

هو حبيب بن أوس بن الحارث الطائيّ (١٨٨ هـ/ ٨٠٤ م - ٢٣١ هـ/ ٨٤٦ م) شاعر، وأديب، وأحد أمراء البيان. ولد في جاسم من قرى حوران بسورية، ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، فأجازه، وقدّمه على شعراء وقته، فأقام في العراق، ثمّ ولي بريد الموصل، فلم يتمّ سنتين حتى توفّي بها. في شعره قوّة وجزالة، واختُلف في التفضيل بينه وبين المتنبّي والبحتري.

له ديوان شعر في مختلف الفنون الأدبيَّة الغنائيَّة التي عرفها العرب. من أشهر مراثيه تلك التي رثا بها محمد بن حميد الطوسيّ، أحد قوّاد جيش المأمون العبّاسيّ. قال فيها:

كَـذَا فَلْيجـلَّ الخَـطْبُ وَلْيَفْـدَحِ الأَمْـرُ
فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَـمْ يَفْضِ مـاؤُهـا عُـذْرُ[1]
تُـوُفِّـيـتِ الآمـالُ بَـعْـدَ مُـحَـمَّـدٍ
وَأَصْبَـحَ في شُغْـلٍ عَنِ السَّفَـرِ السَّفْـرُ[2]

(١) يجلّ: يعظم. ويفدح: يثقل ويصعب.
(٢) السفر: قطع المسافة. والسفر المسافرون.

وما كـانَ إلاَّ مـالَ مَـنْ قَـلَّ مـالُـهُ
وَذُخْـراً لِـمَـنْ أَمْـسَى وَلَـيْس لَـهُ ذُخْـرُ
وَمَـا كـانَ يَـدْرِي مُجْتَـدِي جُـودِ كَفِّـهِ
إذا مـا استهلَّتْ أنَّـهُ خُلِقَ الـعُـسْـرُ(١)
ألا فـي سبيـلِ آلـلَّهِ مَنْ عَـطَّلَتْ لَـهُ
فِـجـاجُ سبيـلِ آللَّهِ وانْـثَغَـرَ الـثَّغْـرُ(٢)
فَـتًى كُـلَّمـا فـاضَتْ عُـيـونُ قَـبيـلَةٍ
دَمـاً ضَحِكَتْ عَنْهُ الأحـاديثُ والـذِّكْـرُ
فـتًى دَهْـرُهُ شَـطرانِ فـيمـا يَـنُـوبُـهُ
ففي بَـأْسِـهِ شَـطْرٌ وفي جُـودِهِ شَـطْرُ
فتًى مـاتَ بينَ الـطَّعْنِ والضَّـرْبِ مِيتَـةً
تَقُـومُ مقـامَ النَّصْـرِ إنْ فـاتَـهُ الـنَّصْـرُ
ومـا مـاتَ حتَّى مـاتَ مضـرَبُ سَيْفِـهِ
منَ الضَّـرْبِ واعْتَلَّتْ عليـهِ القَنـا السُّمْرُ
وقـد كـانَ فـوتُ المـوتِ سهـلاً فـردَّهُ
إليـهِ الحفـاظُ المـرُّ والخُلُقُ الـوَعْـرُ(٣)
وَنَـفْسٌ تَـعـافُ الـعـارَ حَـتَّى كـأنَّـمـا
هُـو الكُفْرُ يـومَ الـرَّوعِ أو دُونَـهُ الكُفْـرُ(٤)

---

(١) المجتدي: الطالب الجدوى أي العطيّة.
(٢) الفجاج: جمع فجّ وهو الطريق الواسع.
(٣) الحفاظ: الذبّ عن المحارم، والمواظبة على العمل. والوعر: الصعب.
(٤) تعاف: تكره. والروع: الحرب.

فَـأَثْبَتَ فـي مُسْتَنْقَـعِ المـوتِ رِجْلَهُ
وَقـالَ لهـا مِنْ تَحْتِ أَخْمُصِـكِ الحَشْـرُ[1]

غَـدا غَـدْوةً والـحَمْـدُ نَـسْـجُ رِدائِــهِ
فَـلَمْ يَنْـصَـرِفْ إلاَّ وَأَكْـفَـانُـهُ الأَجْـرُ

تَـردَّى ثيـابَ المـوتِ حُمْـراً فمـا دَجَى
لهـا اللَّيـلُ إلاَّ وهيَ من سُنـدسٍ خُضْـرُ

كَـأَنَّ بـنـي نَـبـهـانَ يَـومَ وفـاتِـهِ
نُجـومُ سمـاءٍ خَـرَّ من بينهـا البَـدْرُ[2]

يُـعـزُّون عـن ثـاوٍ تُـعـزَّى بِـهِ الـعُـلى
ويَبكي عليـهِ البَـأْسُ والجـودُ والـشِّعْـرُ

وَأَنَّـى لَـهُـمْ صَـبْـرٌ عَـلَيْـهِ وَقَـدْ مـضـى
إلى المـوتِ حَتَّى اسْتُشْهِـدَا هُـو والصَّبْرُ

فتًى كـانَ عَذْبَ الـروحِ لا من غَضَـاضَـةٍ
ولـكـنَّ كِـبـراً أَنْ يـقـالَ بـهِ كِـبْـرُ

فتًى سَلَبَتْـهُ الـخيـلُ وَهـو حِمًى لـهـا
وبـزَّتْـه نـارُ الحَـرْبِ وَهْـوَ لهـا جَمْـرُ[3]

وَقَـدْ كـانَتِ البيضُ المـآثيـرُ في الـوَغى
بـواتـرَ فـهـي الآنَ مـن بَـعْـدِهِ بُـتْـرُ[4]

---

(١) الأخمص: ما لا يصيب الأرض من باطن القدم.

(٢) خرّ: سقط.

(٣) بزت: سلبته.

(٤) المآثير: السيوف التي في متونها أثرٌ. والبواتر: القواطع. والبتر: المقطوعة.

أمِنْ بَعْدِ طَيٍّ الحادِثاتِ مُحَمَّداً
يَكونُ لأثوابِ النَّدَى أَبَداً نَشْرُ
إذا شَجَراتُ العُرْفِ جُذَّتْ أصولُها
ففي أيِّ فرعٍ يُوجدُ الورقُ النَّضْرُ[1]
لَئِنْ أُبْغِضَ الدَّهْرُ الخَؤُونُ لفقدِهِ
لَعَهْدِي بِهِ مِمَّنْ يُحَبُّ لَهُ الدَّهْرُ
لَئِنْ غَدَرَتْ في الرَّوعِ أَيَّامُهُ بِهِ
فما زالتِ الأَيَّامُ شيمَتُها الغَدْرُ[2]
لَئِنْ أُلْبِسَتْ فيهِ المصيبةَ طَيِّئٌ
فما عَرِيتْ منها تميمٌ ولا بَكْرُ
كذلِكَ ما نَنْفَكُّ نَفْقُدُ هالِكاً
يشارِكُنا في فَقْدِهِ البدوُ والحضْرُ
سَقَى الغيثُ غيثاً وَارَتِ الأرضُ شَخْصَهُ
وإنْ لَمْ يَكُنْ فيهِ سَحابٌ ولا قَطْرُ[3]
وَكَيْفَ احتمالي للغُيوثِ صَنِيعَةً
بإسْقائِها قَبْراً وفي لَحْدِهِ البَحْرُ
مَضَى طاهِرَ الأَثْوَابِ لم تَبْقَ رَوْضَةٌ
غداةَ ثَوَى إلَّا آشْتَهَتْ أَنَّها قَبْرُ[4].

---

(١) جذت: قطعت.

(٢) الشيمة: العادة والطبيعة.

(٣) وارت: أخفت.

(٤) ثوى: مات.

ثَـوَى في الثَّرى من كـانَ يَحْيـا بِـهِ الثَّـرَى
وَيْغَمُــرُ صـرفَ الـدهـر نـائلُهُ الغَمْـرُ[1]
عــليــكَ ســلامُ آلـلَّهِ وَقْــفــاً فــإنَّنِــي
رَأيـتُ الكَـريـمَ الحُـرَّ لَـيْسَ لَـهُ عُمْـرُ

وقال يرثي أخاه:

إنّـي أَظُـنّ الـبِـلَى لـو كــانَ يَـفْـهَــمُــه
صَــدَّ البِلَى عَنْ بَقَــايَــا وَجْهِــهِ الحَـسَنِ
يــا يَــوْمَــهُ لـم تَــدَعْ حُسْنــاً ولا أَدَبــاً
إلاّ حَــكَـمْــتَ بِــهِ لِلَّحْــدِ وَالــكَـفَــنِ
لِــلَّهِ مُـقْــلَتُــهُ! والـمــوتُ يَــكْسِــرُهــا
كَــأَنَّ أَجْفَــانَــهُ سَكْــرَى مِنَ الــوَسَنِ
يَــرُدُّ أنْــفَــاسَــهُ كَـرْهــاً وَتَـعْــطِفُــهــا
يَــدُ المَنِيَّــةِ عَــطْفَ الــرِّيــحِ لِلْغُـصُنِ
يـا هَـوْلَ مـا أَبْصَـرَتْ عَيني ومــا سَمِعتْ
أُذْنـي فــلا أَبْـصَــرَتْ عَـيْـنــي ولا أُذُنـي
لَـمْ يَبْـقَ مِنْ بَـدَني جُــزْءٌ عَـلِمْـتُ بِـهِ
إلاّ وَقَــدْ حَــلَّهُ جُــزْءٌ مِــنَ آلْــحَــزَنِ
كــانَ الـلِّحــاقُ بِــهِ أَهْنـا وَأَحْـسَنَ بي
مِنْ أَنْ أَعيشَ سَقيمَ الـرّوحِ والبَـدَنِ.

---

(١) الغمر: الكثير.

ابن الروميّ

هـو أبـو الحسن عليّ بن العبّـاس بن جُـريـج (٢٢١ هـ/ ٨٣٥ م - ٢٨٣ هـ/ ٨٩٦ م). ولد في بغداد من أب روميّ، وأمّ فارسيَّة. أكبّ على تحصيل العلم حتّى استقامت له ثقافة واسعة من لغة وأدب وفلسفة ودين. توالت المِحَن عليه، فمات والده وهو حَدَث، ومات أخوه في شبابه، ومات أبناؤه الثلاثة، وماتت زوجته، والتهبت النيران بعض أملاكه، واغتصب الظلم البعض الآخر.

له ديوان ضخم من الشعر عالج فيه جميع الموضوعات الشائعة عند العرب. وفي الرثاء يندفق ابن الروميّ اندفاقاً لأنّه يرثي من يحبّ، ويرثي في حالة من الانفعال شديدة، وفي حالة من الحزن المتجمّع المتراكم شديدة أيضاً. وكان يخاطب الميت في لهفة المحبّة ولوعة الفراق، ويسكب نفسه عليه حسرة، ويُفصِّل ما يعانيه من شقاء بعد فراقه، فيذكر آلامه، ووحشته، وسهرة في ظلمات الليالي، ودموعه المتساقطة في غزارة وحـرارة، ويذكـر كيف مات الفقيد، وكيف زالت بالموت صفاته، فيتحسَّر عليها تحسّراً يكسر القلب، وقد يخاطب تلك الصفات، ويذرف عليها العبرات، والـذي يقرأ شعره يحزن للشاعر وسوء حاله أكثر مِمّا يحزن للفقيد.

رثاء ابنه الثالث

أُبَـنَـيَّ! إِنَّكَ وَٱلْعَزَاءَ، مَعـاً،
بِـٱلأَمْسِ لُـفَّ عَلَيْكُمَـا كَـفَنُ
تَـاللّٰهِ، لاَ تَنْفَـكُّ لِي شَجَنـاً،
يَمْضِي ٱلـزَّمَانُ، وَأَنْتَ لِي شَجَنُ
مَـا أَصْبَحَتْ دُنْيَايَ لِي وَطَنـاً،
بَـلْ حَيْثُ دَارُكَ، عِنْدِيَ ٱلْـوَطَنُ
مَا فِي ٱلنَّهَارِ، وَقَدْ فَقَدْتُـكَ، مِنْ
أُنْسٍ، وَلاَ فِي ٱللَّيْلِ لِي سَكَنُ[1]
وَلَـقَـدْ تُسَلِّي ٱلْقَـلْبَ ذُكْـرَتُـهُ
أَنِّي بِـأَنْ أَلْقَـاكَ مُـرْتَـهَـنُ[2]
أَوْلاَدَنَـا! أَنْـتُـمْ لَـنَـا فِتَـنٌ!
وَتُفَـارِقُـون، فَـأَنْتُمْ مِحَـنُ![3]

رثاء ولده الأوسط

بُكَـاؤُكُمَـا يَشْفِي، وَإِنْ كَـانَ لاَ يُجْـدِي،
فَجُـودَا، فَقَـدْ أَوْدَى نَـظِيـرُكُمَـا عِنْدِي[4]
أَلاَ قَـاتَـلَ ٱلـلّٰهُ ٱلْـمَـنَـايَـا وَرَمْـيَـهَـا،
مِنَ ٱلْقَـوْمِ، حَبَّـاتِ ٱلْقُلُوبِ، عَلَى عَمْـدِ

---

(١) السكن: الاستئناس.
(٢) ذكرته: أي تذكر القلب. مرتهن: مقيد.
(٣) الفتن: موضوع إعجاب وحب شديد يبلغ الجنون.
(٤) بكاؤكما: خطاب لعينيه.

تَـوَخَّى حِمَـامُ ٱلْمَـوْتِ أَوْسَطَ صِبْيَتِـي،
فَـلِلَّهِ، كَيْـفَ ٱخْتَـارَ وَاسِـطَةَ ٱلْـعِقْـدِ[1]
عَلَى حِينَ شِمْتُ ٱلْخَيْـرَ مِنْ لَمَحَـاتِـهِ،
وَآنَـسْتُ مِنْ أَفْعَـالِـهِ آيَـةَ ٱلـرُّشْـدِ[2]
طَـواهُ ٱلـرَّدَى عَنِّي، فَـأَضْحَى مَـزَارُهُ
بَعِيـداً عَلَى قُـرْب، قَـرِيبـاً عَلَى بُعْـدِ
لَقَـدْ أَنْجَزَتْ فِيـهِ ٱلْمَنَـايَـا وَعِيـدَهَـا،
وَأَخْـلَفَـتِ ٱلآمَـالُ مَـا كَـانَ مِنْ وَعْـدِ
لَقَـدْ قَـلَّ بَيْنَ ٱلْمَهْـدِ وَٱللَّحْـدِ لَبْثُـهُ،
فَلَمْ يَنْسَ عَهْدَ ٱلْمَهْدِ، إِذْ ضُمَّ فِي ٱللَّحْـدِ
أَلَـحَّ عَـلَيْـهِ ٱلـنَّـزْفُ، حَتَّـى أَحَـالَـهُ
إِلَى صُفْـرَةِ ٱلْجَادِيِّ عَنْ حُمْـرَةِ ٱلْـوَرْدِ[3]
وَظَـلَّ عَـلَى ٱلأَيْـدِي تَسَـاقَطُ نَـفْـسُـهُ،
وَيَذْوِي كَمَا يَذْوِي ٱلْقَضِيبُ مِنَ ٱلرَّنْـدِ[4]
فَيَـا لَـكَ مِنْ نَفْسٍ تَسَـاقَطُ أَنْـفُسـاً
تَـسَـاقُطَ دُرٍّ مِـنْ نِـظَامٍ بِـلاَ عَـقْـدِ
عَـجِبْتُ لِقَـلْبِي كَيْـفَ لَـمْ يَـنْـفَـطِرْ لَـهُ
وَلَـوْ أَنَّـهُ أَقْسَى مِنَ ٱلْحَجَـرِ ٱلصَّـلْدِ[5]

---

(١) واسطة العقد: الجوهرة التي في وسطه.

(٢) شمت: رأيت. آنست: نظرت. الآية: العلامة.

(٣) الجادي: الزعفران.

(٤) يدوي: يذبل. الرند: شجر طيب الرائحة.

(٥) ينفطر: ينشق. الصلد: الصلب.

وَمَـا سَـرَّنِـي أَنْ بِـعْـتُـهُ بِـثَـوَابِـهِ
وَلَـوْ أَنَّـهُ ٱلتَّخْلِيـدُ فِي جَنَّـةِ ٱلْخُلْدِ
وَلاَ بِعْتُـهُ طَـوْعـاً وَلَـكِـنْ غُـصِبْـتُـهُ
وَلَيْسَ عَلَى ظُلْمِ ٱلْحَـوَادِثِ مِنْ مُعْـدِ(١)
وَإِنِّـي وَإِنْ مُـتِّـعْـتُ بِـآبْـنَـيَّ بَـعْـدَهُ
لَـذَاكِـرُهُ مَـا حَنَّتِ ٱلنِّيبُ في نَـجْـدِ(٢)
وَأَوْلاَدُنَـا مِـثْـلُ ٱلْـجَـوَارِحِ أَيُّـهَـا
فَقَـدْنَـاهُ كَـانَ ٱلْفَـاجِـعَ ٱلْبَيِّنَ ٱلْفَـقْـدِ
لِـكُـلٍّ مَـكَـانٌ لاَ يَـسُـدُّ ٱخْتِـلاَلَـهُ
مَـكَـانُ أَخِيـهِ مِـنْ جَـزُوعٍ وَلاَ جَـلْدِ(٣)
هَـلِ العَيْنُ بَعْدَ ٱلسَّمْـعِ تَكْفِي مَكَـانَـهُ
أَمِ ٱلسَّمْعِ بَعْدَ ٱلْعَيْنِ يَهْـدِي كَمَا تَهْـدِي
لَعَمْـرِي لَقَدْ حَـالَتْ بِيَ ٱلْحَـالُ بَعْـدَهُ فَيَـا
لَيْتَ شِعْـرِي كَيْفَ حَـالَتْ بِـهِ بَعْـدِي
ثَـكِـلْتُ سُـرُورِي كُـلَّهُ إِذْ ثَـكِـلْتُـهُ
وَأَصْبَحْتُ فِي لَـذَّاتِ عَيْشِي أَخَـا زُهْـدِ(٤)
أَرَيْـحَـانَـةَ ٱلْعَـيْنَـيْنِ وَٱلأَنْـفِ وَٱلْـحَشَـا
أَلاَ لَيْتَ شِعْـرِي هَـلْ تَغَيَّـرْتَ عَنْ عَهْـدِي

---

(١) المعدي: المعين.
(٢) النيب: ج ناب وهي الناقة المسنة.
(٣) الجزوع: الفاقد الصبر.
(٤) ثكلت: فقدت.

سَـأَسْقِيـكَ مَـاءَ ٱلْعَيْنِ مَـا أَسْعَـدَتْ بِـهِ
وَإِنْ كَـانَتِ ٱلسُّقْيَا مِنَ ٱلْعَيْنِ لَا تُجْـدِي(١)
أَعَيْنَـيَّ جُـودَا لِي فَـقَـدْ جُـدْتُ لِلثَّـرَى
بِـأَنْفَسَ مِمَّـا تَسْـأَلَانِ مِنَ ٱلـرِّفْـدِ(٢)
كَـأَنِّيَ مَـا ٱسْتَمْتَعْتُ مِنْـكَ بِضَمَّـةٍ
وَلَا شَـمَّـةٍ فِي مَلْعَـبٍ لَـكَ أَوْ مَـهْـدِ
أُلَامُ لِـمَـا أُبْـدِي عَـلَيْـكَ مِـنَ ٱلأَسَى
وَإِنِّي لَأُخْفِي مِنْـكَ أَضْعَـافَ مَـا أُبْـدِي
مُـحَـمَّـدُ، مَـا شَـيْءٌ تُـوُهِّـمَ سَـلْوَةً
لِـقَـلْبِـيَ إِلَّا زَادَ قَـلْبِـي مِـنَ ٱلْـوَجْـدِ
أَرَى أَخَـوَيْـكَ ٱلْـبَـاقِـيَـيْـنِ كِلَيْـهِـمَـا
يَكُـونَـانِ لَـلأَحْـزَانِ أَوْرَى مِنَ ٱلـزَّنْـدِ(٣)
إِذَا لَـعِـبَـا فِـي مَلْعَـبٍ لَـكَ لَـذَّعَـا
فُـؤَادِيَ بِمِثْـلِ ٱلنَّـارِ عَنْ غَيْـرِ مَـا قَصْـدِ
فَـمَـا فِـيهِـمَـا لِـي سَـلْوَةٌ بَـلْ حَـرَارَةٌ
يَهِيجَـانِهَـا دُونِـي وَأَشْقَـى بِهَـا وَحْـدِي
وَأَنْـتَ وَإِنْ أُفْـرِدْتَ فِـي دَارِ وَحْـشَـةٍ
فَـإِنِّي بِـدَارِ ٱلأُنْسِ فِي وَحْـشَـةِ ٱلْفَـرْدِ
عَـلَيْـكَ سَـلَامُ ٱللَّهِ مِنِّي تَـحِيَّـةً وَمِـنْ
كُـلِّ غَيْثٍ صَـادِقِ ٱلْبَـرْقِ وَٱلـرَّعْـدِ

---

(١) أسعدت بالدمع: ساعدت.
(٢) الرفد: الجود والعطاء.
(٣) أورى: أكثر إيقاداً وإشعالاً. الزند: حديدة من فولاذ تضرب بحجر صوان فينقدح النار.

الشريف الرّضيّ

هـو أبـو الحسن محمـد بن الحسين (٣٥٩ هـ/ ٩٧٠ م - ٤٠٦ هـ/ ١٠١٦ م). ولد في بغداد من أصل شريف يرتقي إلى الحسين بن علي بن أبي طالب. كان يطمح إلى الخلافة، ويُـطمعه فيهـا الكاتب المشهـور أبو إسحاق الصابيّ. تـولّى إمارة الحـجّ، وشهد مـواسم العيد، وفيهـا النساء الوافدات من جميع البلدان. فحرَّك المشهد أوتار قلبه، فنظم قصائد شهيرة في الغزل العفيف عُرفت بالحجازيّات.

ومات الصابي سنة ٣٨٤، هـ وكان رئيس الكتّاب في ديوان الخلافة العبّاسية، وأحد المشهود لهم بحسن الرأي وبلاغة الإنشاء. فرثاه الشريف الرضي بهذه القصيدة العامرة، وهي أكثر من ثمانين بيتاً، نثبت منها ما يلي:

أَعَلِمتَ مَنْ حُملوا على الأَعْـوادِ
أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبـا ضيـاءُ النّـادي

جَبَلٌ هَوَى لَوْ خَرَّ فِي البَحْرِ اَغْتَدَى
مِـنْ وَقْعِـهِ مُـتَـتَـابِـعَ الإِزْبـادِ

ما كُنْتُ أَعْلَمُ قَبْلَ دَفْنِكَ في الثّرى
أَنَّ الثَّـرَى يَعْـلُو على الأَطْـوادِ

بُعْـداً لِيَوْمِـكَ في الـزَّمـانِ فَـإِنَّـهُ
أَقْذَى العُيونَ وَفَتَّ في الأَعْضَادِ(١)
لا يَنْفَـدُ الدَّمْـعُ الـذي يُبْكِى بِـهِ
إِنَّ الـقُـلوبَ لَـهُ مِـنَ الأَمْـدَادِ
أَعْـزِزْ عليَّ بأَنْ يفـارِقَ نـاظـرِي
لَمَعـانُ ذاكَ الكـوكَبِ الـوَقَّـادِ
أَعْـزِزْ عليَّ بـأَنْ نَـزلْتَ بِمَنْـزِلٍ
مُتَشـابِـهِ الأَمجـادِ وَالأَوْغَـادِ(٢)
مَنْ للبـلاغَةِ والفصـاحَةِ إِنْ هَمَى
ذاكَ الغمامُ وَعَبَّ ذاكَ الوادي(٣)
مَنْ للممـالـكِ لا يـزالُ يلمُّهـا
بِسِـدادِ أَمْـرٍ ضـائِـعٍ وسِـدادِ
إِنَّ الـدُّمـوعَ عَلَيـكَ غَيْـرُ بَخيلةٍ
وَالقَلْبُ بـالسُّلْوانِ غَيْـرُ جَـوادِ
سَوَّدْتَ ما بَيْنَ الفضـاءِ وناظـري
وَغَسَلْتَ مِنْ عَيْنَيَّ كُـلَّ سـوادِ(٤)
ماذا الذي حَبَسَ الجوادَ عَنِ المدى
مِنْ بَعْـدِ سَبْقَـتِـهِ إِلى الآمـادِ

(١) فت في عضده: أضعفه.
(٢) أي القبر الذي لا فرق فيه بين الأمجاد والأوغاد.
(٣) إذا سال غمام الفصاحة وطغى واديها.
(٤) أي من كثرة البكاء.

مـاذا الذي فَجَـعَ الهمـامَ بـوَثْبَـةٍ
وعـدا على دَمِهِ وكـان العادي[١]
يـا لَيْتَ أنّي ما اقْتَنَيْتُـكَ صاحبـاً
كَمْ قِنْيَـةٍ جَلَبَـتْ أسًى لِـفُؤادِي
بَـرْدُ القلوبِ بمَنْ تُحِبُّ لِقـاءَهُ
مِمَّـا يَجـرُّ حـرارَةَ الأكْبـادِ[٢]
لا تـطلبي يـا نفسُ خـلًا بَعْـدَهُ
فَـلَمثْـلُهُ أعيـا عـلى المـرتـادِ
إنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ أسرتِي وَعَشِيرتي
فَـلأَنْتَ أعْلَقُـهُمْ يَـداً بـودادي
ضاقَتْ عَلَيَّ الأرْضُ بَعْدَكَ كُلُّهَـا
وَتَـرَكْتَ أضيقَهـا عَلَيَّ بـلادي
لَـكَ في الحشا قبـرٌ وإنْ لَمْ تَأْوِهِ
وَمِنَ الـدّمـوعِ رَوائِحٌ وغـوادي
ما ماتَ مَنْ جَعَلَ الزمـانَ لِسانَـهُ
يَتْلو منـاقِبَ عـوْداً وبـوادي[٣]
فـاذْهَبْ كما ذَهَبَ الـربيعُ وَإِثْـرُهُ
بـاقٍ بكُـلِّ خَمَـائِـلٍ وَنِجـادِ

(١) ما هذا الذي وثب على الهمام وغلبه وقد كان أبداً هو الغالب.
(٢) غبطة القلب بالمحبوب هي سبب الألم والحزن عند فراقه.
(٣) ما مات من يعيد الزمان دائماً ذكرى مناقبه.

وسقـاكَ فَضْلَكَ إِنَّهُ أروى حيـاً
مِنْ رائِــحٍ مُتَعَـرِّسٍ أَوْ غــادِ[1]
جَدَثٌ ـ على أَنْ لا نباتَ بِأَرْضِهِ ـ
وَقَـفَتْ عَـلَيْــهِ مــطالِبُ الــرّوّادِ

(١) فضلك أروى من السحاب الرائح والغادي .

أبو العلاء المعرّيّ

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان (٣٦٣ هـ/ ٩٧٣ م - ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م) شاعر فيلسوف. ولد ومات في معرّه النعمان. أصيب بالجدريّ صغيراً، فعمي في السنة الرابعة من عمره، وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. له ديوان شعريّ ضخم، وعدد كبير من المؤلّفات.

من أشهر قصائده تلك التي رثى بها صديقه الفقيه الشاعر أبو الخطاب محمد الجبليّ، قال فيها(*):

غَيرُ مُجْدٍ في ملّتي واعْتِقَادي
نَوْحُ باكٍ ولا تَرَنُّمُ شادِ
وَشَبيهٌ صوتُ النَّعيِّ إذا قيسَ
بصَوْتِ البَشيهر في كُلِّ نادِ
أَبَكَتْ تِلْكُمُ الحمامَةُ أمْ
غَنَّتْ على فَرْعِ غُصْنِها المَيّادِ
صاحِ هذي قُبورُنا تَمْتَلأُ الرُّحْبَ
فَأَيْنَ القُبورُ مِنْ عَهْدِ عادِ
خَفِّفِ الوَطْءَ ما أَظُنُّ أَديمَ الـ
أَرْضِ إلاّ مِنْ هَذِهِ الأَجْسَادِ

(*) في القصيدة عدد من الأبيات المدوّرة.

وَقَبيــحٌ بنــا وإنْ قَــدمَ العَـهْــدُ
هَــوانُ الآبــاءِ والأَجْــدادِ
سِرْ إنِ اسْطَعْتَ في الهواءِ رُويداً
لا اخْتيــالاً على رُفات العبــادِ
رُبَّ لَحْـدٍ قَدْ صـارَ لَحْداً مِراراً
ضـاحِـكٍ مِنْ تَـزاحُـمِ الأَضْـدَادِ
وَدَفِيـنٍ عـلى بـقـايـا دفـيـنٍ
في طـويـلِ الأَزمـانِ والآبـادِ
فـاسْـألِ الفَـرْقَـدَيْنِ عَمَّنْ أَحَسّـا
مِنْ قبيـلٍ وآنَسـا مِنْ بـلادِ[1]
كَـمْ أَقَـامَـا على زوالِ نـهـارٍ
وأَنَـارَا لِـمُـدْلـجٍ فـي سَـوادِ
تَعَبٌ كُلُّهـا الحياةُ فمـا أُعجَبُ
إلاَّ مِـنْ راغـبٍ فـي ازديـادِ
إنَّ حُزْناً في ساعةِ الموتِ أضعا
فُ سـرورٍ في سـاعــةِ الميـلادِ
خُـلِقَ النـاسُ لـلبَقـاءِ فَـضَـلَّتْ
أُمَّـةٌ يَـحْـسَـبـونَـهُـمْ لـلنَّـفـادِ
إِنَّـمَـا يُنْـقَـلونَ مِـنْ دارِ أعـمـا
لٍ إلـى دارِ شـقـوةٍ أَوْ رَشـادِ

* * *

(١) اسأل هذين الكوكبين عما عرفاه وشهداه من أحوال الناس.

أبنـاتِ الهـديـلِ أَسْعِـدْنَ أو
عِـدْنَ قليلَ العَـزاءِ بـالإسعـادِ[1]
إيـهِ لـلَّهِ دَرُّكُـنَّ فـأنْـتُـنَّ الـلـ
ـواتِي تُـحسِنَّ حِـفْظَ الـودادِ
ما نَسِيتُنَّ هالكاً في الأوانِ الخالِ
أَوْدَى مـن قَبْـلِ هُـلْكِ إيـادِ[2]
بَيْـدَ أنّي لا أرْتَـضي مـا فعلـ
ـتُنَّ وأطـواقُكُـنَّ في الأجيـادِ
فَـتَسلَّيْنَ واسْـتعَـرْنَ جَـمِـيعـاً
مِنْ قميصِ الـدُّجى ثيابَ حِـدادِ
ثُمَّ غَـرِّدْنَ في المـآتمِ وانْـدُبْنَ
بِشَجْـوٍ مَـعَ الغـواني الخِـرادِ

* * *

قَصَدَ الدَّهْـرُ من أبي حمزةَ الأوّا
بِ مَولى حِجًى وِخدْنَ اقْتصادِ[3]
أنْفَقَ العُمْـرَ نـاسِكـاً يَطْلُبُ العِلْـ
ـمَ بـكشفٍ عن أصـله وانتـقـادِ
ذا بـنـانٍ لا تَـلْمسُ الـذَّهَـبَ
الأَحْمَرَ زُهْداً في العَسْجَدِ المُسْتَفَادِ[4]

* * *

(١) بنات الهديل: الحمام. واسعدن أي ساعدن.
(٢) إشارة إلى أن الحمام لا تزال وفية تبكي هديلها الذي هلك سابقاً.
(٣) أي إصابة الدهر وكان صاحب عقل وصلاح.
(٤) العسجد: الذهب.

وَدِّعا أَيُّهـا الحَفِيّانِ ذَاكَ الشَّخْصَ
إِنَّ الــوَداعَ أَيْسَـرُ زادِ
وَاغْسِلاَهُ بالـدَّمْعِ إِنْ كـانَ طُهراً
وَادْفِنـاهُ بيـنَ الحَشَى والـفُـؤادِ
وَاحْبِـواهُ الأَكْفَـانَ مِـنْ وَرَقِ
المُصْحَفِ كبراً عَنْ أَنْفُسِ الأَبْرَادِ
وَاتْـلُوَا النعشَ بـالقـراءَةِ والتَّـ
ـسبيـحِ لا بـالنَّحيبِ والتَّعْـدَادِ
أَسَفٌ غَيْـرُ نـافـعٍ واجْتِهَـادٌ
لا يـؤدِّي إلى غَنـاءِ اجْتـهـادِ
طـالمـا أَخّـرجَ الحـزينَ جـوَى
الحُـزْن إلى غيـرِ لائقٍ بـالسّـدادِ
مثلمـا فـاتَتِ الصَّـلاةُ سليمـانَ
فَـأَنْحى عـلى رقـابِ الجِيـاد
وَهْوَ مَنْ سُخِّرَتْ لَهُ الإِنْسُ والجِنُّ
بـمـا صَحَّ مِنْ شهـادةِ صادِ[1]

* * *

كَيْفَ أَصْبَحْتَ في مَحَلِّكَ بَعْدي
يـا جَـديـراً مِنِّي بِحُسْنِ افْتِقَـادِ
قَـدْ أَقَـرَّ الـطَّبيبُ عَنْـكَ بِعَجْـزٍ
وَتَـقَـضَّـي تَـرَدُّدُ الـعُـوّادِ

---

(١) صاد: سورة في القرآن . ويقصد بهذا البيت وما قبله أن الحزن قد يخرج الإنسان عن صوابه كما فعل النبي سليمان من ضرب الخيل لما عرضت عليه فاشتغل بها حتى فاتته الصلاة. وهو الذي شهد له في سورة «ص» إذ قيل ﴿فسخرنا له الريح﴾ الآية.

وَانْتَهى اليأسُ مِنْكَ واسْتَشْعَرَ الوَجْـدُ
بـــأَنْ لا مَـــعــادَ حتَّى المعادِ[1]
هَجَـدَ السّـاهِـرونَ حـولَـكَ للتمـ
ـــريضِ وَيْـحٌ لأَعْيُنِ الهُجّـادِ
كُـنْتَ خِـلَّ الـصِّبـا فَلَمّـاأراد
البيـنَ وافَقْتَ رَأْيَهُ في المُرادِ[2]
وَرَأَيْتَ الـوفـاءَ للصّـاحبِ الأوَّ
لِ مِنْ شِيمةِ الكَـريمِ الجـوادِ
وَخَلَعْتَ الـشَّبـابَ غَـضّـاً فَيَـا
لَـيْتَـكَ أَبْـلَيْتَـهُ مَـعَ الأَنْـدادِ
فـاذْهَبَـا خَيْـرَ ذاهـبيَـن حقيقـ
ـيـن بسَقْيـا رَوائـحٍ وَغَـوادِ
وَمِـراثٍ لـو أَنَّـهُـنَّ دُمـوعٌ
لَمَحَـوْنَ السُّـطورَ في الإِنْشـادِ

* * *

زُحَـلٌ أَشْـرَفُ الـكَـواكِبِ داراً
مِنْ لِقَـاءِ الـرَّدَى عـلى ميعـادِ
وَلَنارُ المَرِّيخِ مِنْ حَدَثـانِ الدَّهْـرِ
مُـطْفٍ وَإِنْ عَـلَتْ في اتِّـقـادِ
والثُّريّا رَهينـةٌ بـافْتِـراقِ الشَّمْـلِ
حَـتَّـى تُـعَـدَّ فـي الإِفـرادِ

---

(١) المعاد الثانية يوم القيامة.

(٢) الضمير في «أراد» يرجع إلى الصبا.

كُلُّ بيتٍ للهدْمِ ما تَبْتَني الوَرْقاءُ[1]
والسَّيِّدُ الرَّفيعُ العمادِ
والفتى ظاعِنٌ ويَكْفيهِ ظِلُّ السِّدْرِ
ضربَ الأطنابِ والأَوْتادِ[2]
بانَ أمرُ الإلَهِ واخْتَلَفَ الناسُ
فَداعٍ إلى ضلالٍ وهادِ
والذي حارَتِ البَرِيَّةُ فيهِ
حَيَوانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جمادِ
واللبيبُ اللبيبُ مَنْ لَيسَ يَغْتَرُّ
بِكَوْنٍ مَصيرُهُ للفَسادِ

* * *

(١) الورقاء: الحمامة.

(٢) أي إنَّ الانسان راحل يغنيه ظل السِّدْر (وهو شجر النبق) عن أن يبني المنازل، أي إنه قليل الإقامة في الدنيا فيجب أن لا يهتم بها.

المتنبِّي

هو شاعر عصره، بل شاعر العرب جميعاً على مرّ العصور، أحمد بن الحسين بن الحسن (٣٠٣ هـ/ ٩١٥ م - ٣٥٤ هـ/ ٩٦٥ م). قضى حياته متنقّلاً من أمير إلى آخر، يمدح هذا ويهجو ذاك، لكنّ أكثر إقامته كانت في بلاط سيف الدولة الحمدانيّ في حلب. اشتُهر بالشعر الحكميّ، والمدح، والهجاء، والرّثاء.

وفي رثائه يقف المتنبّي من الموت موقف الحكيم، ويقف من المائت موقف التعظيم والتبجيل، ويقف من آل الفقيد موقف المادح، ويقف من نفسه موقف الذكرى والألم النفسيّ، فرثاؤه «ليس رثاء التفجّع والانهيار والضّعف، ولا رثاء من يبكي ويذرف دموعاً، وإنّما هو رثاء التشاؤم، والتألّم، والتأمّل، ورثاؤه لمن يحبّ هو رثاء الثورة النفسية، والانفجار التشاؤميّ، والصرخات المدوّية التي تهزّ الكيان، وتزعزع الإنسان».

رثاء أمّ سيف الدولة

نُعِدُّ المَشْرَفِيَّةَ والعوالي
وَتَقْتُلُنَا المَنُونُ بِلا قِتَالِ[1]

(١) المشرفيّة: السيوف. العوالي: الرماح. المنون: الموت.

وَنَـرْتَـبِطُ السَّـوَابِـقَ مُقْـرَبَـاتٍ
وما يُنْجِينَ مِنْ خَبَبِ اللَّيـالي[1]
وَمَنْ لم يَعْشَقِ الـدُّنيَا قَـدِيمـاً
ولكنْ لا سَبِيـلَ إلى الـوِصَـالِ
نَصِيبُـكَ في حيـاتِـك من حَبِيبٍ
نَصِيبُـكَ في مَنَـامِـكَ مِنْ خَيـالِ
رَمَـانِي الـدَّهـرُ بـالأرْزاءِ حَتَّى
فُـؤادِي في غِـشَـاءٍ من نِـبَـالِ
فَصِـرْتُ إذا أصـابَتْنِي سِـهَـامٌ
تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ على النِّصالِ[2]
وَهَـانَ، فَمَـا أُبَـالي بـالـرَّزايا
لأنِّي مـا آنْتَفَعْـتُ بـأنْ أُبـالي
وهـذا أوَّلُ الـنَّـاعِـيـنَ طُـرًّا
لأَوَّلِ مَـيْـتَـةٍ فـي ذا الـجَـلالِ
كـأنَّ المَـوْتَ لَمْ يَفْجَـعْ بِنَفْسٍ
ولـم يَخْـطُرْ لِـمَخْـلُوقٍ بِـبَـالِ
صَـلاَةُ آلـلَّهِ خـالِقِـنَـا حَنُـوطٌ
على الوَجْهِ المكفَّنِ بـالجَمَالِ[3]

---

(١) السّوابق: كرام الخيل. المقربات: المدناة من البيوت، إمّا لفرط الحاجة إليها أو للضنّ بها. الخبب: نوع من العدو. يقول: ونرتبط الخيول الكريمة، ومع ذلك لا تنجينا من سعي الليّالي.

(٢) النصال: ج نصل، وهي الحديدة التي في رأسها السهم.

(٣) يدعو لها بأن تكون رحمة الله عليها كالحنوط للميت.

عليَ المَدْفُونِ قَبْلَ التُّرْبِ صَوْناً
وَقَبْلَ اللَّحْدِ في كَرَمِ الخِلالِ[١]
فـإنَّ لـه بِبَـطْنِ الأرْضِ شَخْصاً
جَـدِيـداً ذِكْـرُنَـاهُ وَهْــوَ بَـالي[٢]
ومــا أَحَــدٌ يُخَلَّدُ فـي البَـرَايَـا
بَــلِ الــدُّنْيَــا تَؤُولُ إلـى زوالِ
أطــابَ النَّفْسَ أنَّـكِ مُتِّ مَــوْتـاً
تَـمَـنَّـتْـهُ البَـواقـي وَالـخَــوَالِـي
وَزُلْتِ وَلَمْ تَـرَيْ يـومـاً كـريهـاً
تُسَــرُّ الــرُّوحُ فيــه بــالـزَّوَالِ
رِوَاقُ العِــزِّ حَــوْلَــكِ مُسْبَـطِرٌّ
وَمُلْكُ عَليٍّ ٱبْنِـكِ في كَمَـالِ[٣]
سَقَى مَثْـوَاكِ غـادٍ في الغـوادي
نَـظِيـرُ نَـوَالِ كَفِّـكِ في النَّـوَالِ
أُسَـائِلُ عَنْـكِ بَعْـدَكِ كُـلَّ مَجْـدٍ
وَمَـا عَهْدي بِمَجْـدٍ عَنْـكِ خـالي
يَمُــرُّ بِقَبْــرِكِ العَــافِي فَيَبْكِي
وَيَشْغَلُهُ البُكَـاءُ عَنِ الـسُّؤَالِ[٤]

(١) يقول إنّها كانت مدفونة بالصَّون وكَرَم الخلال قبل أن تُدفن في الترب واللحد.
(٢) يقول: إنَّ شخصه وإن كان يبلى في القبر إلّا أنَّ ذكرنا إياه سيبقى أبداً.
(٣) مسبطِر: ممتدّ.
(٤) العافي: طالب المعروف.

ومـا أَهْـدَاكِ لِلْجَـدْوَى عَلَيْـهِ
لَـوَ أنَّـكِ تَقْـدِرينَ على فَعَـالِ
بِعَيْشِكِ هَـلْ سَلَوْتِ فـإنَّ قَلْبِي
وَإنْ جـانَبْتُ أرْضَكِ غَيْـرُ سَـالي
نَـزَلْتِ على الكـراهَـةِ في مَكَـانٍ
بَعُـدْتِ عَنِ النُّعَـامَى والشَّمَـالِ
حَصَـانٌ مِثْـلُ مـاءِ المُـزْنِ فيـه
كَتُـومُ السِّـرِّ صـادِقَـةُ المَقَـالِ
وَلَيْسَتْ كـالإنـاثِ ولا اللَّواتـي
تُعَـدُّ لهـا القُبُـورُ مِنَ الحِجَـالِ
ولا مَنْ في جَنَـازَتِهـا تِـجَـارٌ
يَكُـونُ وَدَاعُهـا نَفْضَ النِّعـالِ[1]
مَشَى الأُمَـراءُ حَـوْلَيْهـا حُفَـاةً
كـأنَّ المَـرْوَ مِنْ زِفِّ الـرِّئـالِ[2]
وأبْـرَزَتِ الـخُـدُورُ مُـخَبَّـآتٍ
يَضَعْنَ النِّقْسَ أمكنـةَ الغـوالي[3]

(١) يقول في هذين البيتين: ليست كالنساء التي يُعَدّ لها القبر ستراً، فهي مصونة مستورة ولم تكن من نساء السُّوقة يتبع جنازتها تجّار وباعة ينفضون النعال من التراب إذا انصرفوا عن القبر.

(٢) المرو: حجارة الصوّان: زِفّ: صغار الريش. الرئال: ولد النعام.

(٣) النقس: هنا السواد. الغوالي: ج غالية وهي نوع من الطيب. يقول: خرجَتْ لموتها نساء كُنَّ مُخَبّآت.

وَلَـوْ كَـانَ النِّسَـاءُ كَمَنْ فَقَـدْنَـا
لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ على الـرِّجَـالِ
وما التأْنِيثُ لِاسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ
ولا التَّـذْكِيـرُ فَـخْـرٌ لِلْهِـلالِ
وَأَفْجَـعُ مَنْ فَقَـدْنَـا مَنْ وَجَـدْنَـا
قُبَيْـلَ الفَقْـدِ مَفْقُـودَ الـمِثَـالِ
يُـدَفِّنُ بَعْضُنـا بَعْضـاً وَتَمْشِـي
أَواخِـرُنَـا عـلى هَـامِ الأَوَالِـي
وكَـمْ عَـيْـنٍ مُـقَـبَّـلَةِ الـنَّـواحـي
كَحِيـلٍ بـالجنـادِلِ والـرِّمَـالِ[1]
وَمُغْضٍ كـانَ لا يُغْضِي لِخَـطْبٍ
وَبَـالٍ كـان يُفْكِـرُ في الهـزالِ
أَسَيْفَ الـدَّوْلَـةِ اسْتَنْجِـدْ بِصَبْرٍ
وكيف بِمِثْـلِ صَبْـرِكَ للجبـال
فـأَنْتَ تُعَـلِّمُ النَّـاسَ الـتَّعـزِّي
وَخَوْضَ المَوْتِ في الحَرْبِ السِّجالِ
وَحَـالاَتُ الـزَّمَـانِ عَلَيْـكَ شَتَّى
وَحَـالُـكَ واحِـدٌ في كُـلِّ حـالِ
فـلا غِيضَتْ بِحَـارُكَ يـا جمـومـاً
على عِلَلِ الغرائِبِ والدِّخـالِ[2]

(١) الجنادل: ج جندلة وهي الحجارة. يقول: كم عين كانت عزيزة، فصارت تحت الأرض مكحولة بالرمل والحجارة.

(٢) غيضت: نقضت. الجموم: الكثير. علل: الشرب الثاني أو تباعاً. الغرائب: ج غريبة وهي التي ترد إلى الحوض. الدّخال: أن يدخل بعير قد شرب بين بعيرين لم يشربا. يقول: لا =

رَأَيْتُـكَ في الّـذين أَرَى مُلوكـاً
كـأنّـكَ مُسْتَقِيمٌ في مُحَـالِ(١)
فــإنْ تَـفُقِ الأنَـامَ وأنْـتَ مِنْـهُمْ
فإنَّ المِسْكَ بَعْضُ دَمِ الغزالِ(٢)

* * *

وقال يرثي أبا شجاع فاتكاً، وقد توفي بمصرَ سنة خمسين وثلاثمائة، وكانت هذه المرثية بعد خروجه من مصر:

الْحُـزْنُ يُقْلِقُ وَالتَّجَمُّـلُ يَـرْدَعُ
وَالـدَّمْـعُ بَيْنَهُمَـا عَصِيٌّ طَيِّعُ(٣)
يَتَنَـازَعَـانِ دُمُـوعَ عَيْنِ مُسَهَّـدٍ
هَـذَا يَجِيءُ بِهَا وَهَـذَا يَرْجِـعُ(٤)
اَلنَّـوْمُ بَعْـدَ أبي شُجَـاعٍ نـافِـرٌ
وَاللَّيْـلُ مُعْيٍ وَاَلْكَوَاكِبُ ظُلَّعُ(٥)

= نَقَضتُ بحارَك يا بحراً كثير الماء وإن وردت عليه الإبل الغريبة وشربت منه.

(١) يقول: أنت بين الملوك كالمستقيم بين المعوج.

(٢) يقول: إن فضلت الناس وأنت واحد منهم، فلا عجب، إذ قد يفضُل بعضُ الشيءِ جملتَه، كالمِسك، وهو بعض دم الغزال، يفضل الغزال كلّه.

(٣) يقول: الحزن لأجل المصيبة يقلقني، والتجمل ـ تكلف الصبر ـ يمنعني عن التهالك والجزع، والدمع بين الحالين عاص لدى التجمّل فيحتبس مطيعاً للقلق فينسكب وبذاك يعصى صاحبه تارة ويطيعه أخرى.

(٤) عني بالمسهد ـ أي الكثير السهاد، الممنوع عنه النوم ـ نفسه. يقول: الحزن والصبر يتنازعان دموع عيني فالحزن يجيء بها ـ أو يجريها والتجمل يردها.

(٥) يقول: النوم بعد أبي شجاع لا يألف العين: أي لا تنام العيون بعده حزناً عليه، والليل يطول فلا ينقضي، كأنه قد أعيا عن المشي ـ كل من التعب ـ فانقطع، والكواكب ظلع ـ كالعرجى ـ لا تقدر أن تقطع الفلك فتغرب. يريد طول الليل لاستيلاء الحزن عليه والهم

إنّي لأجْبُنُ مِنْ فِـرَاقِ أَحِبَّتِـي
وَتُحِسُّ نَفْسِي بالْحِمامِ فأَشْجُعُ(١)
وَيَـزيدُني غَضَبُ الأعَـادِي قَسْوَةً
وَيُلِمُّ بِي عَتْبُ الصَّدِيقِ فأَجْزَعُ(٢)
تَصْفو ٱلْحَيَاةُ لِجَـاهِلٍ أَوْ غَـافِلٍ
عَمَّـا مَضَى فِيهَـا ومـا يُتَـوَقَّـعُ(٣)
وَلِمَنْ يُغَـالِطُ في ٱلْحَقَائِقِ نَفْسَـهُ
وَيَسُومُهَا طَلَبَ ٱلْمُحَالِ فَتَطْمَعُ(٤)

= على قلبه. وعبارة ابن جني: لو كان الليل والكواكب ممّا يؤثّر فيهما حزن لأثّر فيهما موته. وقال الخطيب: إنّما أراد أنّ الليل طويل لفقده فالليل معي والكواكب ظلع ما تسير. يريد طول الليل للحزن.

(١) الحمام: الموت. يقول: أنا جبان عند فراق الأحبة أخافه خوف الجبناء وأشجع عند الموت في ميدان الوغى فلا أهابه. يعني أن الفراق أعظم خطباً عنده من الموت كما قال أبو تمام:

جـليـد عـلى عـتـب الـخـطوب إذا عـرت
ولـسـتُ عـلى عـتـب الاخـلاء بـالْـجَـلْدِ

(٢) يقول: إنه صعب على أعدائه لا يلين لهم، بل يزداد عليهم قسوة إذا غضبوا، ويجزع عند عتب الصديق فلا يطيق احتماله، كما قال أشجع السلمي:

يُـعـطِي زمـامَ الـطوع إخـوانَـهُ
ويـلـتـوي بـالـمـلكِ الـقـادِرِ

وبعد: فإن المتنبي يريد بهذين البيتين عطفه ورقّة قلبه عند الموادّة والملاينة، وشدته عند المباطشة والمقاومة.

(٣) قوله عما مضى: متعلّق بغافل، ويتوقع: ينتظر. يقول: إنما تصفو الحياة لجاهل لا يدرك أحوالها ومصايرها، أو غافل عما مضى فها من العبر وما ينتظر في العواقب من انقضائها أو أحداثها التي لا يطيق لها احتمالاً، أما العاقل الفطن الذي ينظر إلى الدنيا بعين المعرفة ويتأملها تأمل الدراية ويمثل صوارفها وتصاريفها فإنها لا تصفو له.

(٤) يسومها: يكلّفها، ويعني بالحقائق: ما لا شك فيه للعاقل، وهو أنّ الدنيا على الحقيقة دار غرور وأخطار، والإنسان فيها على خطر عظيم، وأنّ الحياة، فانية فمن غالط في هذا نفسه =

أَيْنَ الَّـذِي الهَـرَمَـانِ مِنْ بُنْيَـانِـهِ
مَا قَوْمُـهُ مَا يَـوْمُهُ مَـا المَصْرَعُ[1]

تَتَخَلَّفُ الآثَـارُ عَنْ أَصْحَـابِهَـا
حِينـاً وَيُـدْرِكُهَـا الْفَنَـاءُ فَتَتْبَـعُ[2]

لَمْ يُرْضِ قَلْبَ أَبِي شُجَاعٍ مَبْلَغٌ
قَبْلَ المَمَاتِ وَلَمْ يَسَعْهُ مَوْضِعُ[3]

كُـنَّـا نَـظُنُّ دِيَـارَهُ مَـمْـلُوءَةً
ذَهَبـاً فَمَـاتَ وَكُـلُّ دَارٍ بَلْقَـعُ[4]

=ومناها السلامة والبقاء صفا له العيش حين ألقى عن نفسه الفكر في العواقب، وسام نفسه طلب المحال من البقاء في السلامة مع نيل المراد، فطمعت في ذلك.

(١) الهرمان: هما الهرم الأكبر الأوسط ـ وهما معروفان. يقول أين من بناهما؟ وأين قومه؟ ومتى كان يوم موته؟ وكيف كان مصرعه؟ يعني أنّهما بقيا بعد من بناهما واندرس ذكره وذكر قومه، فما يعرفون ولا يعرف بأيِّ ميتة هلك، ولا في أيِّ وقت لطول ممرّ الدهر عليه. يريد أنّ الدنيا مفنية لأهلها منكرة على من اغتر بها، وأنّ الفناء حتم في رقاب العباد، وأن الجميع صائرون إلى الفناء. وعبارة العكبريّ: قوله أين الذي الهرمان من بنيانه: استدل ببنائهما على تمكّنه، وأقامهما شاهدين على قوته وقدرته، أي أين هو وقوته؟ وأين قومه وكثرتهم؟ وأين عددهم وعددهم؟ أما عفت الدنيا آثار ملكه وأفنته؟ أما فرقت شمله وشتّته؟ أما في بطن الأرض غيبته؟.

(٢) يقول: إن الآثار تبقى بعد أصحابها حيناً من الدهر تدلّ على تمكنهم وقوّتهم وسطوتهم ثم ينالها ما نالهم من الفناء فتذهب كما ذهب أصحابهـا، وهذه شنشنـة الدنيـا مع أهلهـا، والمعهود من تصاريفها.

(٣) يقول: إنه ـ لبعد مرتقى همّته ـ لم يكن يرضى بمبلغ يبلغه في العلا حتى يطلب ما فوقه، ولـم يكن ليسعه موضع من الأرض لأنه لا يشبع طموحه.

(٤) البلقع: الخالي. يقول: كنّا نظنّه صاحب ذخائر من الأموال، فلمّا مات لم يخلف مالاً لأنه كان جواداً معطاء.

وإذا المَكَـارِمُ والصَّـوَارِمُ والْقَنــا
وَبَناتُ أعْوَجَ كلُّ شَيْءٍ يَجْمَعُ(١)
ٱلْمَجْـدُ أخْسَرُ والمَكَـارِمُ صَفْقَـةً
مِنْ أَنْ يَعِيشَ لَهَا الْكَرِيمُ الأروعُ(٢)
والنَّـاسُ أَنْزَلُ في زَمَـانِكَ مَنْـزِلاً
مِنْ تُعَـايِشَهُمْ وَقَـدْرُكَ أرْفَـعُ(٣)
بَـرِّدْ حَشَايَ إنِ ٱسْتَـطَعْتَ بِلَفْظَةٍ
فَلَقَـدْ تَضُـرُّ إذا تَشَــاءُ وَتَنْفَـعُ(٤)

(١) يقول: وإنما كل ما كان يجمعه في حياته المكارم والأسلحة والخيل، أما الذهب فلا، لأنه كان يفرقه بالعطاء، بنات أعوج: يعني الخيل؟ وأعوج: فحل مشهور من خيل العرب، تنسب إليه الخيل الأعوجية، قيل سمى بذلك لأن غارة وقعت على أصحابه ليلاً وكان مهراً، ولضنهم به حملوه في وعاء على الإبل حين هربـوا من الغارة، فـاعوج ظهـره وبقي فيه العوج، فلقب بالأعوج.

(٢) الأروع: الذكي الفؤاد. يقول: إن المجد والمكارم أخسر صفقة وأنقص حظاً من أن يعيش لها هذا المرثيّ، يعني أنها شقيت لذهاب من كان يحفظها ويجمع شملها وقال العكبريّ - عند إعراب قوله المجد أخسر والمكارم صفقة: إذا جعلت التقدير المجد والمكارم أخسر صفقة اختل، لأنك تفصل بالمكارم بين أخسر وبين صفقة، وهي منصوبة بأخسر - التي هي عطف على المجد - وهذا غير جائز، لأن صفقة تحل من أخسر محل الصلة من الموصول، ألا ترى أنه لا يجوز أن تقول زيد أحسن وعمرو وجهاً، ولكن لك أن تصرفه إلى وجه آخر، وهو أن تجعل المكارم عطفاً على الضمير في أخسر؟ فإن عطفته على الضمير الذي فيه لم يكن أجنبياً منه، فلا يعد فصلاً بينه وبين صفقة، فيصير نحو قولك. مررت برجل أكـل وعمرو خبزاً، بعطف عمرو على الضمير في أكل ونصب خبزاً بأكل.

(٣) يقول: إن الناس في زمانك أقلّ قدراً من أن تكون بينهم تخالطهم وتعاشرهم، وقدرك أجلّ من أن تعايش أهل هذا الزمان.

(٤) يقول: كلّمْني كلمة وأسمعني منك لفظة إنِ قدرت عليها، ليسكن ما في قلبي من لوعة الحزن، فلقد كنت في حياتك تضـر - إذا تشاء - أعـداءك، وتنفع أوليـاءك، أو فانفعني بكلامك.

مـا كَانَ مِنْـكَ إِلَى خَلِيـلٍ قَبْلَهَـا
مـا يُسْتَرَابُ بِـهِ ولا مَا يُـوجِعُ(١)
ولَـقَـدْ أَرَاكَ ومَـا تُـلِمُّ مُـلِمَّـةٌ
إِلاَّ نَفَـاهَا عَنْـكَ قَلْبٌ أَصْمَـعُ(٢)
وَيَـدٌ كَـأَنَّ قِتَـالَهَـا ونَـوَالَهَـا
فَـرْضٌ يَحِقُّ عَلَيْكَ وَهْـوَ تَبرعُ(٣)
يـا مَنْ يُبَـدِّلُ كُـلَّ يَـوْمٍ حُلَّةً
أَنَّـى رَضِيـتَ بِحُـلَّةٍ لاَ تُنْـزَعُ(٤)
ما زِلْتَ تَخْلَعُهَا على مَنْ شَـاءَهَا
حَتَّى لَبِسْتَ ٱلْيَـوْمَ مَـا لاَ تَخْلَعُ
مَـا زِلْتَ تَدْفَـعُ كُـلَّ أَمْـرٍ فَـادِحٍ
حَتَّى أَتَى ٱلأَمْرُ ٱلَّذِي لاَ يُدْفَعُ(٥)

---

(١) يقال استراب به: أي رأى منه ما يريبه؟ أيْ يقلقه. يقول: لم يكن منك إلى أخلائك قبل هذه المرة: أي قبل أن تفجعهم بنفسك: ما يريبهم منك أو يوجعهم، فلما فقدت أوجعت قلوبهم وأبكيت عيونهم.

(٢) الأصمع: الذكي الحاد، وقوله وما تلم: حال. يقول: كنت أراك في حال حياتك وما تنزل بك نازلة من نوازل الدهر إلا دفعها عنك قلب ذكي.

(٣) يقول: ونفاها عنك يد شنشنتها إعطاء الأولياء وقتال الأعداء حتى لكأن النوال والقتال واجبان عليها، وهما تبرع ولا وجوب.

(٤) يريد: يا من كان في حياته يلبس كل يوم لباساً جديداً. . . إذا يخلع الملبوس على من يقصده ـ كيف ترضى أن تلبس الآن حلة لا تخلع؟ يعني الكفن ـ والحلة: اللبـاس من ثوبين ـ إزار ورداء ـ ولا تسمى حلة حتى تكون ثوبين.

(٥) الفادح: الذي يثقل حمله، وفي هذا المعنى يقول الحماسي:

دَفَـعـنـا بِـكَ الأيـامَ حـيـث إذا أتَـتْ
تُـرِيـدُكَ لـم نَـسـطِعْ لـهـا عنـك مَـدفـعـا

فَـظَلِلْتَ تَنْظُرُ لاَ رِمَـاحُـكَ شُـرَّعٌ
فِيمَـا عَرَاكَ وَلاَ سُيُـوفُكَ قُـطَّعُ (١)

بِـأَبِي الْـوَحِيـدُ وَجَيْشُـهُ مُتَكَـاثِـرٌ
يَبْكِي وَمِنْ شَرِّ السِّلاَحِ الأَدْمُعُ (٢)

وَإِذَا حَصَلْتَ مِنَ ٱلسِّلاَحِ عَلَى ٱلْبُكَا
فَحَشَاكَ رُعْتَ بِهِ وَخَدَّكَ تَقْرَعُ (٣)

(١) عراك: أصابك ونزل بك، وشرع الرمح: بسط اليد به وسدَّده. يقول: ظللت ـ أقمت ـ تنظر إلى الموت نظر العاجز لم تعمل رماحك ولا سيوفك في دفع ما نزل بك، إذ لا مدفع للموت.

(٢) بأبي: تفدية. وقوله وجيشه متكاثر: حال من ضمير الوحيد، ومتكاثر: خبر أول لجيشه، ويبكي: خبر ثان. يقول: إنه ـ مع كثرة جيوشه ـ كان وحيداً مع الأنصار، فلم يكن لجيوشه غناء فيما نزل به غير البكاء، ولا عدّة غير الدموع، مع أن الدموع من شرّ الأسلحة، لأنّها تضرّ صاحبها ولا تغني شيئاً عند المصيبة. وقد فسر هذا في البيت التالي.

(٣) رعت: أفزعت وأخفت، وتقرع: تضرب. يقول: إذا لم يكن لك سلاح غير البكاء فلا غناء في الكباء، إنما تروع به القلب وتقرع به الخد. أي أنه لا يجدي ولا يدفع شيئاً.

رثاء محمّد بن بقيَّة

عندما انتصر عضد الدولة على ابن عمه عزّ الدولة، قتل محمَّد بن بقيَّة وزير عزّ الدولة صَلْباً، فرثاه أبو الحسن الأنباري بهذه القصيدة التي لاقت شهرة واسعة حتّى إن عضد الدولة لما وقف عليها، قال: لقد تمنّيت أن أكون أنا المصلوب، وتكون هذه القصيدة فيّ.

عُـلُوٌّ فـي الـحَيَـاةِ وفـي الـمَـمَـاتِ
لَـحَقٌّ تِـلْكَ إحْـدَى الـمُـعْـجِـزاتِ

كـأَنَّ الـنـاس حَـوْلَـكَ حِيْـنَ قَـامُـوا
وُفُـودُ نَـدَاكَ أَيَّـامَ الـصِّـلاتِ

كـأَنَّـكَ قـائـمٌ فـيـهِـمْ خَـطِيـبـاً
وَكُـلُّهُـمُ قِـيَـامٌ لـلصَّـلاة

مَـدَدْتَ يَـدَيْـكَ نَـحْـوَهُـمُ آحْـتِـفَـاءً
كَـمـدِّهِـمـا إلـيـهـم بـالـهِـبَـاتِ

ولـمّـا ضـاقَ بَـطْنُ الأرْض عَـنْ أنْ
يَـضُـمَّ عُـلاكَ مِـنْ بَـعْـدِ الـوفـاةِ

أصاروا الجوَّ قبرَكَ واسْتعاضُوا
عَنِ الأكْفَانِ ثوبَ السّافِياتِ
لِعظْمِكَ في النُّفوسِ بَقِيتَ تُرْعَى
بِحُرَّاسٍ وَحُفّاظٍ ثِقَاتِ
وَتُوقَدُ حَوْلَكَ النِّيرانُ لَيْلاً
كذلِكَ كُنتَ أيَّامَ الحَيَاةِ
رَكِبْتَ مَطِيَّةً مِنْ قَبْلُ زَيْدٌ
عَلاهَا في السِّنِينَ الماضِياتِ
وَتِلْكَ قَضِيَّةٌ فيها تَأَسٍّ
تُبَاعِدُ عَنْكَ تَعْيِيرَ العُداةِ
وَلَمْ أَرَ قَبْلَ جِذْعِكَ قَطُّ جِذْعاً
تمكَّنَ مِنْ عِنَاقِ المَكْرُمَاتِ
أسَأْتَ إلى النَّوائِبِ فاسْتَثَارَتْ
فأنْتَ قَتِيلُ ثأرِ النَّائِباتِ
وَكُنْتَ لِمَعْشَرٍ سَعْداً فَلَمَّا
مَضَيْتَ تَفَرَّقُوا بالمُنْحَسَاتِ
غَلِيلٌ باطِنٌ لَكَ في فُؤادي
يُخَفَّفُ بالدُّمُوعِ الجارِياتِ
وَلَوْ أنّي قَدِرْتُ على قِيامٍ
بِفَرْضِكَ والحُقوقِ الواجباتِ

مـلأتُ الأرْضَ مِـنْ نَـظْمِ القـوافـي
وَنُـحْـتُ بـهـا خـلافَ النَّـائـحـاتِ
ولـكـنِّـي أُصَـبِّـرُ عَـنْـكَ نَـفْـسـي
مـخـافـةَ أنْ أُعَـدَّ مِـنَ الـجُـنَـاةِ
ومـا لَـكَ تـربَـةٌ فـأقـولَ تُـسْـقَـى
لأنَّـكَ نَـصْـبُ هَـطْلِ الـهـاطـلاتِ
عـلـيـكَ تَـحِـيَّـةُ الـرَّحْـمَـن تَـتْـرى
بِـرَحْـمَـاتٍ غـوادٍ رائـحـاتِ

علي بن محمّد التهاميّ

لأبي الحسن علي بن محمد التهامي. وهو شاعر لطيف النظم، تُوفِّي قتلاً في سجن مصر سنة ٤١٦ هـ، وكان قد وصل إليها في مهمّة سياسيّة خفيّة. وهذه المرثاة في ولد له مات صغيراً، وهي مشهورة بحسنها وروعتها، تجمع بين الحزن، والحِكَم، والفخر، وتزيد أبياتها على الثمانين نقتصر منها على هذه النخبة:

حُكْمُ المنيَّةِ في البَرِيَّةِ جارِ
ما هذِهِ الدُّنْيا بِدَارِ قرارِ

يا كَوْكَباً ما كانَ أقْصَرَ عُمْرَهُ
وكذاكَ عُمْرُ كواكبِ الأسْحارِ

وَهِلَالَ أيّامٍ مَضَى لم يَسْتَدِرْ
بَدْراً ولم يُمْهَلْ لِوَقْتِ سرار[1]

عَجِلَ الخُسُوفُ عَلَيْهِ قَبْلَ أوَانِهِ
فَمَحَاهُ قَبْلَ مَظَنَّةِ الإبْدارِ

وَٱسْتُلَّ مِنْ أتْرَابِهِ وَلِدَاتِهِ
كالمُقْلَةِ ٱسْتُلَّتْ مِنَ الأشْفارِ

(١) وقت السرار: آخر ليلة في الشهر.

فــكــأنَّ قــلبــي قَــبْــرَهُ وكــأنَّــهُ
في طــيِّــهِ سِــرٌّ مِــنَ الأسْــرار
أبْــكِــيــهِ ثــمَّ أقُــولُ مُــعْــتــذراً لَــهُ
وُفِّــقْــتَ حــيــن تَــرَكْــتَ أَلأمَ دارِ
جــاوَرْتُ أعْــدائِــي وَجَــاوَرَ رَبَّــهُ
شَــتَّــانَ بــيــن جِــوارِهِ وَجِــوارِي
أُخْفِي مِن البُــرَحَــاءِ نــاراً مِــثْــلَ مــا
يُــخْــفــي مِــنَ الــنــارِ الــزِّنــادُ الــواري
وأُخَــفِّضُ الــزَّفَــراتِ وهــي صــواعِــدٌ
وأكَــفْــكِــفُ الــعَــبَــراتِ وهــي جَــوارِ
وشِــهــابُ نــارِ الــحُــزْنِ إنْ طَــاوَعْــتُــهُ
أوْرَى وإنْ عَــاصَــيْــتُــهُ مُــتَــوارِي
وأكُــفُّ نــيــرانَ الأسَــى وَلَــرُبَّــمــا
غُــلِبَ الــتَّــصَــبُّــرُ فــآرْتَــمَــتْ بَــشَــرَارِ
ثــوبُ الــرِّيــاءِ يَــشُــفُّ عَــمّــا تَــحْــتَــهُ
وإذا الــتَــحَــفْــتَ بــه فــإنَّــكَ عــارِ
قَــصُــرَتْ جفــوني أم تَبَــاعَــدَ بَــيْــنَــهَــا
أمْ صُــوِّرَتْ عَــيْــنــي بــلا أشْــفــارِ
أُحْــيِــي اللَّيــالِي التِّــمَّ وهــي تُــمِــيــتُــني
وَيُــمِــيــتُــهُــنَّ تَــبَــلُّجُ الأسْــحــارِ
وَطَــرِي مــن الــدُّنْــيــا الــشَّــبــابُ وَرَوقُــهُ
فــإذا آنْــقَــضَــى فَــقَــدِ انْــقَــضَــتْ أوْطــاري

قَصُرَتْ مَسَافَتُهُ وما حَسَنَاتُهُ
عِنْدِي وَلَا آلاؤُهُ بِقِصَارِ
نَزْدادُ هَمّاً كلَّما آزْدَدْنا غنىً
والفَقْرُ كلُّ الفَقْرِ في الإكثارِ
ما زادَ فَوْقَ الزادِ خُلِّفَ ضائعاً
في حادِثٍ أو وارِثٍ أو عارِ
إنِّي لأَرْحَمُ حاسِدِيَّ لِحَرِّ ما
ضَمِنَتْ صُدُورُهُمْ مِنَ الأوغارِ

من الرثاء في العصر الأندلسي

أبو البقاء الرُّنديّ

هو صالح بن شريف الرّنديّ، نسبةً إلى رُندة في جنوبي الأندلس. شاعر أندلسيّ متأخّر من أبناء القرن التاسع الهجريّ. اشتهر بقصيدته السائرة في رثاء الأندلس.

رثاء الأندلس

لِكُلِّ شَيْءٍ إذا ما تَمَّ نُقْصَانُ
فلا يُغَرَّ بِطيبِ العَيْشِ إنْسَانُ
هي الأُمُورُ كما شاهدْتُها دُوَلٌ
مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أزْمانُ
وَهَذِهِ الدَّارُ لا تُبْقِي على أَحَدٍ
وَلاَ يَدُومُ علَى حَالٍ لَهَا شَانُ
أتى على الكُلِّ أمْرٌ لا مَرَدَّ لَهُ
حتَّى قَضَوا، فَكَأنَّ القَومَ ما كانُوا
وَصَارَ مَا كَانَ من مُلْكٍ وَمِنْ مَلِكٍ
كَمَا حَكَى عَنْ خَيَالِ الطيفِ وسْنَانُ

فجـائـعُ الـدَّهْـرِ أنْـواعٌ مُنَـوَّعَـةٌ
ولـلـزَّمــانِ مَـسَــرَّاتٌ وأحْــزَانُ
ولِـلْحَــوَادِثِ سَلْوَانٌ يُـسَـهِّـلُهَــا
وَمَـا لِمَا حَـلَّ بـالإسْـلامِ سَلْوَانُ
دهى الجَـزِيـرَةَ أمْـرٌ لا عَـزَاءَ لَـهُ
هَـوَى لَهُ أُحُـدٌ وآنْهَـدَّ ثَهْـلانُ(١)
تَبْكِي الحَنِيفَيَّةُ البَيْضَاءُ مِنْ أَسَفٍ
كمـا بَكَى لِفِـرَاقِ الإلْفِ هَيْمـانُ
على دِيَـارٍ من الإسْـلامِ خَـالِيَـةٍ
قَـدْ أقْفَرَتْ ولهـا بالكُفْـرِ عمـرانُ
يا غافـلاً ولَهُ في الـدَّهْرِ مَـوْعِظَةٌ
إنْ كُنْتَ في سِنَةٍ فالدَّهْرُ يقظان(٢)
تلك المُصِيبَـةُ أنْسَتْ ما تَقَـدَّمَها
وما لها مِن طِـوَالِ الدَّهْـرِ نسْيانُ
يـا رَاكِبين عِتاقَ الخَيْـلِ ضامِـرَةً
كَـأنَّها في مَجَـالِ السَّبْقِ عِقْبـانُ
وحَـامِلِينَ سُيُـوفَ الهِنْـدِ مُـرْهَفَـةً
كـأنَّهَـا في ظَـلامِ النَّقْـعِ نيـرانُ
وَرَاتِعِينَ وراءَ البَـحْــرِ في دِعَــةٍ
لَهُمْ بــأَوْطَــانِهِمْ عِــزٌّ وسُـلْطَانُ

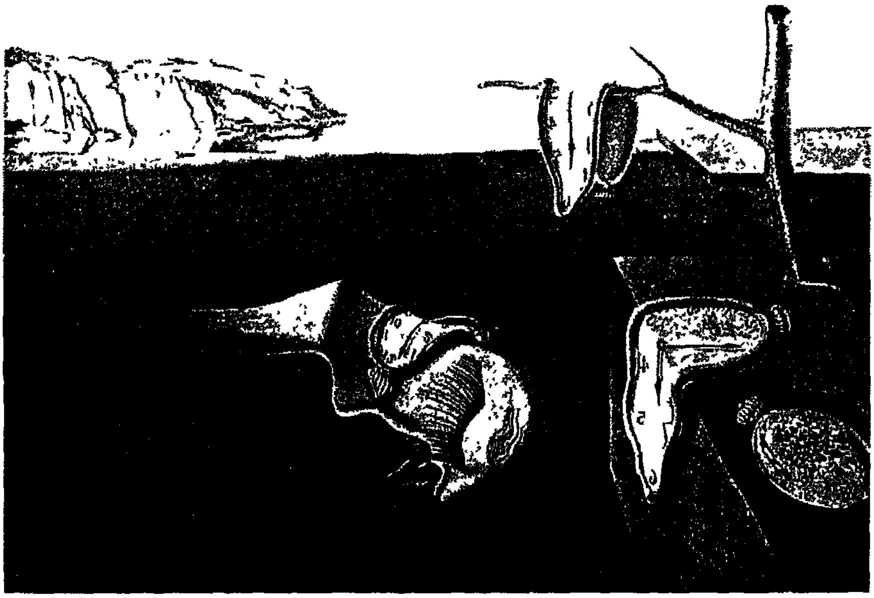
---

(١) أحد وثهلان : جبلان.

(٢) السّنة : الغفلة.

أَعِنْـدَكُمْ نَبَـأٌ مِنْ أَهْـلِ أَنْـدلُسٍ
فَقَدْ سَرَى بِحَدِيثِ القَوْمِ رُكْبَـانُ
كم يَسْتَغِيثُ بنا المُسْتَضْعَفُونَ وَهُمْ
قَتْلَى وأَسْـرَى فمـا يَهْتَـزُّ إنْسَـانُ
ماذا التَّقَاطُـعُ في الإِسْلامِ بَيْنَكُمُ
وأَنْـتُمْ يـا عِـبَـادَ آللّهِ إِخْـوانُ
أَلاَ نُفُـوسٌ أَبِيَّـاتٌ لـهـا هِمَـمٌ
أمـا على الخيـرِ أَنْصَـارٌ وأَعْـوانُ
يـا مَنْ لِذلَّـةِ قَـوْمٍ بَعْـدَ عِـزِّهِمِ
أَحَـالَ حَـالَهُمُ جَـوْرٌ وَطُغْيَـانُ
بالأَمْسِ كانُوا مُلُوكاً في مَنَازِلِهِمْ
واليَوْمَ هم في بِلادِ الكُفْرِ عُبْدَانُ
وَلَـوْ رَأَيْتَ بُكـاهُمْ عِنْـدَ بَيْعِهِمُ
لَهَـالَكَ الأَمْـرُ واسْتَهْوَتْـكَ أَحْزَانُ
لِمِثْلِ هَذا يَذُوبُ القَلْبُ من كَمَدٍ
إِنْ كانَ في القَلْبِ إِسلامٌ وإِيمانُ

من الرّثاء في العصر الحديث



سلفادور دالي
ـ إلتحاح الذاكرة ـ ١٩٣١

هذه اللوحة لسلفادور دالي، وفيها يتثاءب الوقت، وتسيل الساعات وتتمدّد على بقايا شبه إنسانيّة وغصون يابسة مكعّبات: أو يحتاج النمل الأسود الآكل، ساعة مقفلة على الوقت.

بينما يبدو الأفق الشاحب الغرائبيّ، وكأنه عالم آخر أبديّ لا ينتمي إلى الوقت الإنسانيّ، في تناقض مع القلق والسأم والتشويه والهلاك، وكلّها مترافقة مع مرور الوقت في ذاكرة الإنسان الحاجة.

الياس أبو شبكة

أديب لبنانيّ (١٩٠٣ - ١٩٤٧ م) ولد في نيويورك، وعاش في لبنان. عشق الطبيعة، ووقف إلى جانب الإنسان كان من البناة المجدِّدين، وأروع ما عنده المزج البديع بين الإنسان والطبيعة. له آثار شعريّة ونثريّة، منها «أفاعي الفردوس»، و «غلواء»، و «الرسوم».

من أشهر قصائده في الرثاء قصيدته «الحجر الحيّ» تلك التي قالها في فوزي المعلوف الذي توفّي في البرازيل، وأُقيم له تمثال نصفي أُثبت فوق نصب تذكاري في ساحة بلدية زحلة (لبنان) مدينته الأم.

ومن هذه القصيدة:

أَطْبِقْ جناحَيْكَ مَعْقُوداً لَكَ الظَّفَرُ
فَقَدْ وَصَلْتَ وشَوْطُ[1] المجْدِ مُخْتَصَرُ
ما ضرَّ وَكْرَكَ أن تَأتيهِ مُنْطَفِئاً
ما دَامَ قلبُكَ في جَنْبَيْهِ يَسْتَعِرُ[2]
أَتيتَهُ في النُّحاسِ الحيِّ طيِّبَةً
عليهِ مِنْ روحِكَ الأَعْرَاقُ والسُّرَرُ

(١) الشوط: المرحلة.

(٢) يستعر: يشتعل.

عَينـاكَ في الحَجَرِ المصبـوبِ ساهِـرَةٌ
يَقْـظَانَـةٌ فيهمَـا أَحـلامُـكَ الـغُـرَرُ(١)

* * *

نِيـرانُ عَبْقَـرَ في عَيْنَيْـكَ إن مَـرَدَتْ(٢)
هُـوجُ الـدُّجَى فَعَلَى عَيْنَيْـكَ تَـنْصَـهِـرُ
مَهْمَـا طَغَى الليـلُ لا تُشْقِيـكَ زَوبَـعَـةٌ
وَلاَ تَـجَـهُّـمَ فـي أجـفـانِـكَ الـحَـوَرُ

* * *

يَقْـظَانُ والنـاسُ عُـمْيٌ فـي مَـرَاقِـدِهِم
سِيّـانَ نامُـوا على ذُلٍّ أم احتُضِـرُوا
عَـارٌ عَـلَيْـنـا نَـنَـامُ الـليـلَ هـانِئَـةٌ
عُـيـونُـنـا وعِـبَـابُ الـلَّيـلِ مُـعْـتَـكِـرُ
وتَشْهـدُ الصُبْـحَ عُـرسَ الصُبحِ مُنْعقـداً
عَـلَى جَـبـينِـكِ نـورٌ مِـنـهُ يـنـصَـفِـرُ
وَلاَئِـمٌ لَـكَ تُـزْجَـى مِـنْ مَـوائِـدِهَـا
الـعـطرُ والـنّـورُ والألـحـانُ والـصُّـوَرُ

* * *

تَـشُـدُّ جَـفْـنَـيْـكَ رؤيَـا لا قَـرارَ لَـهـا
كَـأنَّمَـا الغَيْبُ فـي عَيْنَيْـكَ مُنْحَصِـرُ

---

(١) الغرر: البهيّة.
(٢) مردَت: عصَتْ.

عَـيْنُ الـعـظيمِ ضِـيـاءُ الأنـبـيـاءِ بِـهـا
مَـرَّ الـجحيمُ ولـم يَـطرفْ لهـا بَـصَـرُ
مُـنْـذُ ابنِ مـريـمَ والأكـفـانُ هـاوِيَـةٌ
عَـنِ النُبـوغِ وصَخـرُ القَبـرِ مُنْحَـدِرُ
كـم فـي بِـلادِكَ مـن نَـفْسٍ تَـوَدُّ عـلى
وقـاحِ عـورتِـهـا أن تُسـدَلَ السـتُـرُ

* * *

أبـا النُسـورِ، سَقَيْتَ المـوتَ خَمْـرَتَـه
فَصَلبُـكَ الـمُصْـطَفَى لِلْخُـلْدِ مُـدَّخَـرُ
مـا ضَـرَّ نَسْـرَكَ لم يَعْقِبْ وقـد نَسَلَتْ
مِـنْـهُ النُـجُـومُ، فَفَـوْزي وحـدَه أسَـرُ
ورُبَّ حَـيٍّ غَـدَا فـي قـومِـهِ حَـجـراً
ورُبَّ مَيْتٍ غَـدَا حَـيًّـا بِـهِ الحَـجَـرُ

مصطفى المنفلوطيّ

أديب مصريّ (١٢٨٩ هـ/ ١٨٧٢ م - ١٣٤٣ هـ/ ١٩٢٤ م) نابغة في الإنشاء والأدب. انفرد بأسلوب نقيّ في مقالاته وكتبه. وله شعر جيد فيه رقّة وعذوبة. من مؤلّفاته «النظرات»، و«في سبيل التاج»، و«العبرات»، و«مجدولين».

ومن رثائه نثبت قوله في رثائه ابنه.

١ - الآنَ نَفَضْتُ يَدَيَّ من تُرابِ قبرِكَ يا بُنيّ، وعُدتُ إلى مَنْزِلي، كما يعودُ القائدُ المُنكَسِرُ من ساحةِ الحربِ، لا أملِكُ إلّا دمعةً، لا أستطيعُ إرسالَها، وزَفرةً لا أستطيعُ تَصعيدَها؛ ذلك لأنّ اللّهَ الذي كَتَبَ لي في لوحِ مَقاديرِهِ[1] هذا الشَّقاءَ في أَمْرِكَ، فرَزَقَني بكَ قبلَ أنْ أسأَلَهُ إيّاك، ثمَّ آخْتَطَفَكَ قبلَ أن آسْتَعْفِيَهِ[2] مِنْكَ، قد أرادَ أن يُتمِّمَ قضاءَه فيَّ، وأنْ يُجرعني الكأس حتّى ثُمالتِها[3]، فَلَهُ الحَمْدُ راضياً وغاضباً، وله الثّناءُ مُنعِماً وسالِباً، ولَهُ منّي

(١) لوح المقادير: إيمان دينيّ بأنّ الله يضع لكلّ إنسان حين يُولد لوحاً يكتب عليه سيرة حياته الدنيا والمصائب التي تنزل به.

(٢) أستعفيه: أطلب منه العفو عن تكليفه.

(٣) الثمالة: البقية الباقية في الكأس.

ما يَشاءُ منَ الرِّضا بِقضَائِهِ، والصَّبْرِ عَلى بَلائِه.

٢ ـ رأيتُكَ يا بنيَّ في فِراشِكَ عليلًا فَجزعْتُ[(١)]، ثم خِفْتُ عليكَ الموتَ فَفَزِعْتُ، وكأنّما كان يُخَيَّلُ إليَّ أنَّ الموتَ والحياة شأنٌ من شُؤونِ الناسِ، وعَمَلٌ منَ الأعمالِ التي تَملِكُها أيْدِيهِمْ، وآسْتَشَرْتُ الطَّبِيبَ في أمرِكَ، فكتبَ ليَ الدواءَ، وَوَعَدني بالشِّفاءِ، فجَلَسْتُ بجانِبِكَ أصُبُّ في فمكَ ذلك السائلَ الأصفرَ قَطْرةً قَطْرَةً، والقَدَرُ يَنْتزِعُ من جَنْبَيْكَ الحياةَ قِطعَةً قِطعة، حتى نظرتُ، فإذا أنتَ بين يَديَّ جُثَّةٌ باردةٌ لا حَراكَ بها، وإذا قارورةُ الدّواءِ ما تزالُ في يدي فعلِمتُ أني قد ثكِلْتُكَ، وأن الأمرَ أمرُ القضاءِ لا أمرُ الدَّواء! لقد كان خيراً لي ولكَ يا بُنيَّ أن أكِلَ[(٢)] إلى اللّهِ أمْرَكَ في شِفائِكَ ومَرضِكَ، وحياتِك، ومَوْتِك . . .

٣ ـ ما أسْمَجَ[(٣)] وجهَ الحياةِ مِنْ بَعدِكَ يا بُنيّ! وما أقبحَ صورةَ هذه الكائناتِ في نظري! وما أشَدَّ ظُلمةَ البيتِ الذي أسْكُنُهُ بعد فِراقِكَ إيّاه! فلقد كُنتَ تطلعُ في أرجائِه شَمْساً مُشرقةً تُضيءُ لي كلَّ شيءٍ فيه، أمّا اليومَ فلا ترى عَيْني مِمّا حولي، أكثرَ مما ترى عينُك الآنَ في ظُلُماتِ قبرِك. بكى الباكونَ والباكياتُ عليكَ ما شاءُوا، وتفجَّعُوا، حتى إذا ضَعُفَتْ قِواهُمْ عنِ آحتمالِ أكْثَرَ مِمّا آحتملوا، لجَأُوا إلى مَضاجِعِهِمْ، فسكنوا إليها، ولم يبقَ ساهراً، في ظُلمةِ هذا الليلِ، وسُكونِه، غيرُ عَيْنَيْن قَريحتين[(٤)]: عينِ أبيك

---

(١) جزعت: خفت.

(٢) أكِل: أسلم إلى الله.

(٣) ما أسمج: ما أقبح.

(٤) قريحتين: جريحتين.

الثاكِل المِسكينِ، وعينٍ أُخرى أنتَ تعلَمُها. . .

٤ ـ دفنتُكَ اليومَ يا بُنيّ، ودَفَنْتُ أخاكَ مِنْ قَبْلِكَ، ودفنتُ من قبلِكُما أُخَوَيْكُما، فيا لِلّهِ لقلبٍ قد لاقى فوقَ ما تُلاقي القلوبُ، وآحتملَ فـوقَ ما تَحتَمِلُ من فوادحِ الخُطوبِ! . لماذا ذهبتمْ يا بنيّ بعدما جِئْتُمْ؟ ولماذ جِئتُمْ إن كُنْتُمْ تَعلمونَ أنّكمْ لا تُقيمون؟ . . .

صلاح لبكي

أديب لبناني، كان شاعراً وناثراً ورجل صحافة وبلاغة.

وُلد في البرازيل سنة ١٩٠٦، ثم انتقل، طفلاً، مع أبيه، إلى لبنان، حيث حصَّل قسطاً وافراً من المعارف.

«عاش حياته كلها ـ كاتباً، شاعراً، صحفياً، ومحامياً على الذروة».

هو شاعر مُبدع، أحبّ الجمال، وعبّر عنه في شعر أضفى عليه جماليّة الألفاظ، وجماليّة المعاني، وجماليّة السياق.

هو شاعر إنساني مثاليّ، نبضت العاطفة الإنسانية في كل لفظة من ألفاظه، وفي كل لفتة من لفتاته. توفي سنة ١٩٥٥.

من آثاره: «مواعيد» و «أرجوحة القمر» و «من أعماق الجبل».

مناسبة القصيدة: عندما توفي الشيخ إبراهيم اليازجي رثاه خليل مطران بقصيدة رائعة مطلعها:

ربَّ البيانِ وسيّدَ القلمِ
وفَّيْتَ قسطَك للعلى فنم

وعندما تُوفِّي شاعر الأقطار العربيَّة خليل مطران رثاه شعراء كثيرون، وحدث أن أقامت الكلّيّة الشرقيَّة بزحلة مهرجاناً لذكرى وفاته، فأنشد الشاعر

الكبير صلاح لبكي القصيدة التالية راثياً ومعارضاً قصيدة للمتنبِّي في رثاء والدة سيف الدولة أمير حلب.

رَمَتْكَ بِما تُعِدُّ لَنا اللَّيالي،
فَهذا الشَّجْوُ[1] مِنْ ذاكَ ٱلْوِصالِ[2]
وَما نَبْكيكَ مَيْتاً، كُلُّ باقٍ
تَمَنَّى أَنْ يَكُونَكَ في المآلِ[3]
وَقَدْ كُنْتَ الضِّياءَ على زَوالٍ،
فَأَمْسَيْتَ الضِّياءَ بِلا زَوالِ
مُعَلِّمَ كُلِّ أُغْنِيَةٍ حَنيناً
وَهَدْيَ ٱلْوِرْدِ في سُبُلِ ٱلْغَوالي[4]
لِمَنْ نُصْغي إذا آشْتَبَهَتْ ظُنُونٌ[5]
وَقَدْ سَكَتَ آبْنُ ناصِيَةِ المقالِ[6]
أَتَيْتَ الشِّعْرَ وَهْوَ على هُزالٍ
بِأَوْطانٍ سَبَقْنَ إلى آنْحِلالِ
فَرُحْتَ تَصُوغُ أَشْتاتَ المعاني
ويَعْصِمُكَ الطُّمُوحُ مِنَ الضَّلالِ

(١) الشجو: الهم والحزن.
(٢) الوصال: ضد الهجر.
(٣) المآل: المصير، يقول: كل باق تمنّى أن يكون ميتاً فادياً إيّاك بحياته.
(٤) سبل الغوالي: الطرق التي تؤدي إلى فرائد الأفكار.
(٥) إذا اشتبهت ظنون: أي إذا لم تظهر الحقيقة، ووقعنا في ظنون مختلفة.
(٦) ابن ناصية المقال: أي كما قال خليل مطران «رب البيان وسيد القلم».

وَتَبْنِي، فَالْقَصِيدَةُ بَعْلَبَكُّ،
وكَانَتْ قَبْلُ أُبْيَاتَ ٱلْجِبَالِ
لَقَدْ جَاوَزْتَ أَبْكَارَ الأَواتِي[١]
عَلى مَهلٍ، وَإِبْداعَ الأَوالِي[٢]
فَلَمْ يُعْجِزْكَ صَعْبٌ في مَجالٍ،
وَلا أَغْواكَ سَهْلٌ فِي مَجالِ
كَأَنَّ ٱلْحُسْنَ أَسْلَمَ كُلَّ سِرٍّ
إِلَيْكَ، فَصِرْتَ مَوْضُوعَ السُّؤالِ
نَعَى لُبْنانُ، يَوْمَ نُعيتَ، عَقْلاً
تَرَسَّلَ[٣] لِلحقِيقَةِ وَٱلْجَمالِ
نَعَى ٱلْقَلْبَ ٱلَّذِي غَمَرَ ٱلْبَرايا
حَناناً غَيْرَ مُنْقَطِعِ النَّوالِ[٤]
نعَى ٱلْخُلُقَ ٱلْحَصَانَ[٥]، نعَى السجايا
نَعَى ٱلْعَذْبَ المناقِبِ وَٱلْخِلالِ[٦]
نَعَى الأَوْفَى مَواثِيقاً وَعَهْداً،
وَلَوْ كَرَّ الزَّمانُ بِغَيْرِ حالِ

---

(١) جاوزت أبكار الأواتي: أي أنّك سبقت الآتين بعدك إلى المبتكرات.
(٢) الأوالي: أي الذين سبقوك ولا سيّما الأقدمين منهم.
(٣) ترسّل: أي مال ميلاً شديداً.
(٤) النوال: العطاء.
(٥) الخلق الحصان: أي المصون.
(٦) الخلايا والسجايا والمناقب: الصفات الخلقيّة الكريمة.

نَعَى الآدابَ، عِلْماً وَآحْتِشاماً،

وَذَاكَ الصَّوْغُ في ذَاكَ آلْجَلالِ

أخا آلْهِمَمِ آلْكِبارِ، سَطَعْتَ فينا

أباً لِلْعَبْقَرِيَّاتِ الصِّقالِ

لئِنْ تَكُنِ آلْمَنِيَّةُ جُلَّ فَضْلٍ

فَقَدْ وَفَّيْتَ قِسْطَكَ لِلْمَعالي

وَحُقَّ لَكَ الرُّقادُ، وَأَنتَ طِفلٌ

تَخَطَّى السَّابِقينَ إلى آلْكَمالِ

الأخطل الصغير

هو بشارة بن عبد الله الخوري (١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م - ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م) أشهر شعراء لبنان في العصر الحديث. مولده ووفاته في بيروت. أنشأ جريدة «البرق»، وعمل في الصحافة طول حياته. له ديوانان شعريّان، هما الهوى والشباب»، و«شعر الأخطل الصغير». من أهم قصائده في الرّثاء تلك التي قالها في رثاء سعد زغلول التالية، وسنثبت بعدها القصيدة الشهيرة التي قالها في الاحتفال الذي أقيم في حلب تكريماً لشاعرها الخالد أبي الطّيب المتنبّي بمناسبة مرور ألف سنة على وفاته.

قالوا: دَهَتْ مِصْرَ دَهْيَاءُ. فَقُلْتُ لَهُمْ:
هَلْ غُيِّضَ النِّيلُ أَمْ هَلْ زُلْزِلَ الهَرَمُ؟
قالوا: أَشَدُّ وَأَدْهى. قُلْتُ: وَيْحَكُمُ
إذاً، لَقَدْ ماتَ سَعْدُ، وَانْطَوى العَلَمُ!

* * *

لِمْ لا تقولون: إنَّ العُرْبَ قاطِبَةً
تَيَتَّموا، كانَ زُغْلولٌ أباً لَهُمُ؟
لِمْ لا تَقولونَ: إنَّ الغَرْبَ مُضْطَرِبٌ
لِمْ لَا تَقولونَ: إنَّ الشَّرقَ مُضْطَرِمُ؟

عَذَرْتُكُمْ، كانَ مِلْءَ الكَوْنِ صاحِبُكُمْ
فَكَيْفَ تَمْلأُ أُذْنَ السّامِعِ الكَلِمُ؟
لَلصَّمْتُ أَبْلَغُ مِنْهَا، وَهُوَ مُنْسَحِقٌ
والدَّمْعُ أَفْعَلُ مِنْهَا، وَهْوَ مُنْسَجِمُ

* * *

جاءَ النَّبِيُّون مِنْ قَبْلٍ، فَما لأَمُوا
وَجَاءَ سَعْدٌ، فشَمْلُ الشَّرقِ مُلْتَئِمُ
القائِلُ الحقَّ لا تُثْنَى أَعِنَّتُهُ
والواحِدُ الفَرْدُ في أثوابِهِ أُمَمُ
لُطْفُ المسيحِ مُذابٌ في مَحاجِرِهِ
وَعَزْمُ أَحْمَدَ في جَنْبَيْهِ يَحْتَدِمُ
صَلَّى عَلَيْهِ النَّصارى في كَنائِسِهِمْ
والمسْلِمونَ سَعَوا لِلْقَبْرِ، وَآسْتَلَمُوا

* * *

المُؤمنونَ بِسَعْدٍ، أَينَ أُبصِرُهُمْ
والمُعْجَبونَ بِسَعْدٍ، أَينَ أَينَ هُمُ؟
أَفَرِي الطَّيالِس عَنْهُمْ لا أُشاهِدُهُمْ
أَبْري القَلانِس عَنْهُمْ لا أُحِسُّهُمُ
وَأَسْأَلُ الحَفْلَ عَنْهُمْ لا يُجاوِبني
كَأَنَّمَا الحَفْلُ في آذانِهِ صَمَمُ

* * *

بَلَى شَهِدْتُهُمْ والنَّقْعُ مُعْتَكِرٌ
والحَقُّ مُطَّلَبٌ والثَّغْرُ مُبْتَسِمُ
ورايَةُ الوطنِ الغالي تُظِلُّهُمُ
كَأَنَّهَا حَضَنَتْ أفراخَها الرَّخمُ[1]
رُوحٌ تَسيلُ على القِرْطَاسِ إنْ خَطبوا
وقَدْ تَسيلُ على القِرْضابِ إنْ قحموا[2]
مِصْرٌ وَلَيْسَ سِوَى مِصْرٍ لَهُمْ أَرَبٌ
إنْ تَشْقَ يَشْقَوا وإنْ تَنْعَمْ فَقَدْ نَعِموا

* * *

رجالَ مِصْرٍ شفيعي إنْ عَتَبْتُكُمْ
أَنَّ المُحِبَّ لَدَيْكُمْ ليسَ يُتَّهَمُ
إنِّي أخافُ عليكُمْ في تَحَزُّبِكُمْ
أَنْ تَنْصُروا الخَصْمَ وَهْوَ الخَصْمُ والحَكَمُ
تَخاصمونَ على ضَعْفٍ، وَخَصْمُكُمُ
وَهْوَ القَوِيُّ، عَلَيْكُمْ لَيسَ يَخْتَصِمُ
تَوَحَّدوا باسْمِ مِصْرٍ في تجهّمها
وطالعوا ثَغْرَ مِصْرٍ كيفَ يبتَسِمُ
سَعْدٌ أَرادَكُمُ حِلْفاً ـ فلا قُسِمَتْ
أَجْزاؤُكُمْ ـ حُبُّ مِصْرٍ لَيسَ يَنْقَسِمُ

---

(١) الرَّخم: طائر من الجوارح يشبه النسر.
(٢) القِرْضاب: السَّيف الباتر. قحموا: قطعوا.

سِيروا - لِكُلِّ أَخي دُنيا لُبانَتُهُ[1]
حَتَّى أذا ما رَبِحْتُمْ مِصْرَ، فَاقْتَسِموا

تاريخُ مِصْرٍ وَلودٌ، ما انْتَمى شَمَمٌ
إلّا إليه، وحابى نَفْسَهُ الشَّمَمُ

أُمُّ الحضارَةِ، بَلْ مَجْلَى أَشِعَّتِها
يَومَ الحضارَةِ لَمْ تَعْلَقْ بِها رَحِمُ

تَقَهْقَرَتْ دُونَها الأَيّامُ واجفةً
فَهْيَ الشَّبابُ، وَتِلْكَ الشَّيبُ والهَرَمُ

* * *

مَنْ مُبْلِغٌ مِصْرَ عَنّا ما نُكابِدُهُ
إِنَّ العُروبَةَ فيما بينَنا ذِمَمُ

رُكْنانِ للضّادِ، لمْ تُفْطَمْ عُرًى لَهُما
هُمْ نَحْنُ إنْ رُزِئْتَ يَوْماً وَنَحْنُ هُمُ

* * *

وقال بمناسبة الاحتفال بمرور ألف سنة على وفاة المتنبِّي :

نَفَيْتَ عَنْكَ العُلى وَالظَّرْفَ وَالأَدَبا
وَإِنْ خُلِقْتَ لَها - إنْ لَم تَزُرْ حَلَبا

شَهْباءُ لَوْ كانَتِ الأَحْلامُ كَأْسَ طِلًى
في راحَةِ الفَجْرِ كُنْتِ الزَّهْرَ وِالحَبَبا

أَوْ كانَ لِلَّيْلِ أَنْ يَخْتارَ حِلْيَتَهُ
وَقَدْ طَلَعْتَ عَلَيْهِ، لا الشُّهُبا

---

(١) اللبانة: الحاجة.

لَوْ أَنْصَفَ العَرَبُ الأَحْرَارُ نَهْضَتَهُمْ
لَشَيَّدوا لَكَ في ساحاتِها النُّصُبا
لَكِنْ خُلِقْتَ لأَمْرٍ لَيْسَ يُدْرِكُهُ
مَنْ يَعْشَقُ الذُّلَّ أَوْ مَنْ يَعْبُدُ الرُّتَبا

* * *

مَلاعِبَ الصِّيْدِ مِنْ حَمْدانَ، ما نَسَلوا
إلّا الأَهِلَّةَ وَالأَشْبالَ وَالقُضُبا
الخالِعينَ عَلى الأَوْطانِ بَهْجَتَها
وَالرَّافِعينَ عَلى أَرْماحِها القَصَبا
حُسامُهُمْ ما نَبا في وَجْهِ مَنْ ضَرَبوا
وَمُهْرُهُمْ ما كَبا في إِثْرِ مَنْ هَرَبا
ما جَرَّدَ الدَّهْرُ سَيْفاً مِثْلَ «سَيْفِهِمِ»
يُجْرِي بِهِ الدَّمَ أَوْ يُجْرِي بِهِ الذَّهَبا
رَبُّ القَوافي عَلَى الإِطْلاقِ شاعِرُهُمْ
الخُلْدُ والمَجْدُ في آفاقِهِ اصْطَحَبا
سَيْفانِ في قَبْضَةِ الشَّهْبَاءِ لا ثُلِما
قَدْ شَرَّفا العُرْبَ بَلْ قَدْ شَرَّفا الأَدَبا

* * *

عُرْسٌ مِنَ الجِنِّ في الصَّحْرَاءِ قَدْ نَصَبوا
لَهُ السُّرَادِقَ تَحْتَ اللَّيْلِ وَالقُبَبَا
كأَنَّهُ تَدْمُرُ الزَّهْرَاءُ مارِجَةً
بِمِثْلِ أَلْسُنِ الأفاعي تَقْذِفُ اللَّهَبا

أَوْ هَضْبَةٌ مِنْ خُرافاتٍ مُرَقَّعَةٌ
بِأَعْيُنٍ مِنْ لَظَىً أَوْ مِنْ رُؤُوسِ ظُبى

تَخاصَرَ الجِنُّ فِيهَا بَعْدَ ما سَكِروا
وَبَعْدَ ما احْتَدَمَتْ أَوْتارُهُمْ صَخَبا

فَأَفْزَعَ الرَّمْلَ ما زَفُّوا وَما عَزَفوا
فَطار يَسْتَنْجِدُ القِيعانَ وَالكُثُبا

تَكَشَّفَ الصُّبْحُ عَنْ طِفْلٍ وَمارِدَةٍ
لَهُ عَلى صَدْرِها زَأْرٌ إِذا غَضِبا

كَأَنَّهُ الزِّئْبَقُ الرَّجْراجُ في يَدِها
أَوْ خَفْقَةُ البَرْقِ إِمَّا اهْتَزَّ وَاضْطَرَبا

نادَى أَبوهُ ـ عَظيمُ الجِنِّ ـ عِتْرَتَهُ،
فَأَقْبَلوا يَنْظُرونَ البِدْعَةَ العَجَبا

ماذا نُسَمِّيهِ؟... قالَ البَعْضُ: صاعِقَةً
فَقالَ: كَلَّا... فَقالوا: عَاصِفاً ـ فَأَبى

فَقامَ كَالطَّوْدِ مِنْهُمْ مارِدٌ لَسِنٌ
وَقالَ: لَمْ تُنْصِفُوهُ اسْماً وَلا لَقَبا

سَنَبْعَثُ الفِتْنَةَ الكُبْرى عَلَى يَدِهِ
فَنَشْغَلُ النَّاسَ وَالأَقْلامَ وَالكُتُبا

وَنَجْعَلُ الشِّعْرَ رَبّاً يَسْجُدونَ لَهُ
فَإِنْ غَوَواْ فَلَقَدْ نِلْنَا بِهِ الأَرَبا

* * *

وَاخْتــالَ غَيْــرَ قَـليــلٍ ، ثُمَّ قــالَ لَـهُمْ:
سَمَّيْتُـهُ المُتَنَبِّي.... فَـانْتَشَـواْ طَـرَبـا
وَزَلْــزَلُــوا البِيــدَ حَتَّى كـادَ سـالِكُهـا
يَهْـوِي بِـهِ الــرَّحْـلُ لا يَـدْرِي لَـهُ سَبَبـا
يَــرى الــسَّــرابَ عُـبـابـاً هــاجَ زاخِــرُهُ
وَالــرَّمْــلَ يَـلْتَحِـفُ الأَزْهَــارَ وَالـعُـشْبـا

* * *

إِيــهٍ أَخــا الــوَفْـرَةِ الـسَّـوْداءِ كَمْ مَـلِكٍ
أَعـاضَـكَ التَّـاجَ مِنْهَـا، لَـوْ بِهـا اعْتَصَبـا
طَلَبْتَ بِــالـشِّـعْــرِ دونَ الـشِّعْــرِ مَــرْتَبـةً
فَــشَــاءَ رَبُّــكَ أَنْ لا تُــدْرِكَ الــطَّلَبـا
إِذَنْ لأَثْـكَـلْتَ أُمَّ الــشِّـعْــرِ واجِـدَهــا
وَعُــطِّلَ الــوَكْــرُ لا شَــدْواً وَلا زَغَــبـا
لَــوْلا طِـمــاحُـكَ مـا غَنَّيْـتَ قــافِـيَــةً
بَــوَّأْتهــا الشَّـمْسَ، أَوْ قَلَّدْتَـهــا الحِـقَبـا
«خُــذْ مــا تَــراهُ وَدَعْ شَيْئـاً حَلِمْتَ بِــهِ»
فَــرُبَّ حِــلْمٍ جَمـيــلٍ أَوْرَثَ الـعَـطَبـا

* * *

أَبــا الفُتـوحــاتِ لَمْ تُـزْجِ الخَميسَ لَهــا
وَلا لَـبِـسْـتَ إِلَيْـهَــا الـبِـيضَ وَالـيَـلَبـا
تَــأْتِـي الـتُّــخُــومَ فَـتَــلْقـاهــا مُـهَــلِّلَةً
مِـثْــلَ المَــريضِ أَتــاهُ بِــالـشِّفــاءِ نَـبـا

ما الفَتْحُ أَهْدَى إِلَيْكَ الرَّوْضَ وَالسحُبا
كالفَتْحِ جَرَّ عَلَيْكَ الوَيْلَ وَالحَرَبا
وَلَوْ فَتَحْتَ بِحَدِّ السَّيْفِ لانْحَطَمَتْ
تِيجانُ قَوْمٍ، حَشَوْها الظُّلْمَ وَالرَّهَبا
«ما كُلُّ ما يَتَمَنَّى المَرْءُ يُدْرِكُهُ»
وَيُدْرِكُ الغايَةَ القُصْوَى وَما طَلَبا
قَدْ يُؤْثِرُ الدَّهْرُ إِنْساناً فَيَحْرِمُهُ
مَنْ يَمْنَعِ الشَّيْءَ أَحْياناً فَقَدْ وَهَبا
يا مُلْبِسَ الحِكْمَةِ الغَرَّاءِ رَوْعَتَها
حَتَّى هَتَفْنَا: أَوَحْياً قُلْتَ أَمْ أَدَبا
كَأَنَّما هِيَ أَصْداءٌ يُرَدِّدُها
هذا إِذا بَثَّ، أَوْ هذا إِذا عَتَبا
قالوا اسْتَباحَ أَرِسْطو، حينَ أَعْجَزَهُمْ،
وَإِنَّهُ اسْتَلَّ مِنْ آياتِهِ النُّخَبا
مهْلاً، فَما الدَّهْرُ إِلاَّ فَيْضُ فَلْسَفَةٍ
يَعودُ بِالدُّرِّ مِنْهُ كُلُّ مَنْ دَأَبا
مَنْ عَلَّمَ ابْنَ أَبي سُلْمَى «حَكيمَتَهُ»
وَقُسَّ ساعِدَةَ الأَمْثالَ وَالخُطَبا؟
قالوا الجَديدُ، فَقُلْنا: أَنْتَ حُجَّتُهُ
يا واهِباً كُلَّ عَصْرٍ كُلَّ ما خَلَبا
أَفِكْرَةٌ لَمْ تَكُنْ فَتَّقْتَ بُرْعُمَها
وَجِدَّةٌ لَمْ تَكُنْ أُمّاً لَها وَأَبا

بَعْضُ الجَـديـدِ الَّـذي يـدْعـونَـهُ أَدَبـاً
يَـمـوتُ فـي يَـومِـهِ، هَـذا إذا وُهِـبـا
إنْ لَمْ يَكُنْ لَـكَ حُسْنُ الـوَجْـهِ تَعْـرِضُـهُ
فَـقَـدْ ظَلَمْتَ بِـهِ أَثْـوابَـكَ الـقُشُـبـا
عَـفْـواً نَـبـيَّ الـقَـوافـي، أيُّ نـابِغَـةٍ
لَمْ يَـزْرَعـوا حَـوْلَـهُ البُهْتَـانَ وَالكَـذِبَـا
مَنَعْتَ عَنْهُمْ ضِيـاءَ الشَّمْسِ فَـانْحَجَبـوا
فَـهَـلْ تَلومُـهُـمُ إنْ مَـزَّقـوا الحُـجُـبـا
أَضْـرَمْتَ ثَـوْرَتَـكَ الهَـوْجَـاءَ فَـالتَهَمَتْ
مِنَ القَـريضِ الهَشيمَ الـغَثَّ والـخَشَـبـا
وَغـالَ شِعْـرُكَ شِعْـرَ الكـائِـدينَ لَـهُ،
لِـنَفْسِهِـمْ حَفَـرَتْ أَيْـديـهِـمِ التُّـرَبـا
حَـتَّـى رَجَـعْـتَ وَلِـلأَقْـلامِ هَـلْهَـلَةٌ
في كَفِّ أَبْلَغِ مَنْ غَنَّى وَمَنْ طَـرِبـا...

* * *

يـا خـالقـاً جيلَهُ، لَـوْلاكَ مـا عَـرَفَتْ
لَـهُ الأَواخِـرُ لا رَأْسـاً ولا ذَنَـبـا
غَضِبْتَ لِلْعَـقْـلِ أَنْ يَشْـقى فَثُـرْتَ لَـهُ
بِمِثْلِ مـا انْدَفَـعَ البُـرْكَـانُ وَاصْـطَخَبا
هَـلِ الـنُّـبـوَّةُ إلاَّ ثَـوْرَةٌ عَـصَـفَـتْ
عَلى التَّـقـالِيـدِ حَتَّى تَسْتَـحيـلَ هَبـا
مـا ضَـرَّ مُـوقِـدَهَـا، وَالخُلْدُ مَنْـزِلُـهُ،
إذا رَمى نَفْسَـهُ في نـارِهـا حَـطَبـا...

حافظ إبراهيم

هــو محمـد حــافظ إبــراهيم (١٢٨٧ هـ / ١٨٧١ م - ١٣٥١ هـ/ ١٩٣٢ م) شاعر مصر القوميّ، ومدوّن أحداثها نيّفاً وربع قرن. لُقِّب بشاعر النيل، وطار صيته، واشتهر شعره ونثره. كان قويّ الحافظة، راوية، مرحاً، حاضر النكتة، بديع الإلقاء، كريم اليد في حالي بؤسه وشقائه. لـه دِيوان شعريّ، وبعض المؤلّفات النثريّة.

من أهم قصائده في الهجاء قصيدتان، قال الأولى منهما في رثاء الشيخ محمد عبده، وقال الثانية في رثاء مصطفى كمال باشا، وفيما يلي نصّهما:

رثاء الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

سَــلامٌ عــلى الإسْــلامِ بَعْــدَ مُـحَمَّــدٍ
سَــلَامٌ عــلى أيّــامِــه الــنَّــضِــراتِ[1]
على الـدِّينِ والدُّنْيَـا، على العِلْمِ والحِجا
على البِـرِّ والتَّقْــوَى، عـلى الحَسَنَــات
لقــد كنتُ أَخْشَـى عــادِيَ المَــوْتِ قَبْلَه
فــأَصْبَحْـتُ أَخْشَـى أَنْ تَــطُولَ حيــاتي

(١) النضرات: ذوات الحسن والرونق.

فـوا لَـهَفِـي ـ والقَبْـرُ بَـيْـنِـي وبَـيْـنَـه ـ

عـلى نَـظْرَةٍ مِنْ تِـلْكُـمُ الـنَّـظَرات(١)

وَقَفْتُ عليـه حـاسِـرَ الـرَّأْسِ خـاشِعـاً

كـأنِّـي حِيـالَ الـقَبْـرِ فـي عَـرَفـات(٢)

لـقـد جَـهِـلُوا قَـدْرَ الإمـامِ فـأَوْدَعُـوا

تَـجـالِـيـدَهُ فـي مُـوحِشٍ بـفَـلاة(٣)

ولـو ضَـرَحُـوا بـالمَسْجِـدَيْنِ لأَنْـزَلُـوا

بِـخَيْـرِ بِـقـاعِ الأرض خَـيْـرَ رُفـات(٤)

تَـبـارَكْتَ هٰـذا الـدِّيـنُ دِيـنُ مُـحَـمَّـدٍ

أَيُـتْـرَكُ في الـدُّنْـيـا بـغَـيْـرِ حُـمـاة؟

تَبـارَكْتَ! هَـذا عـالِمُ الشَّـرقِ قـد قَضَى

ولانَـتْ قَـنـاةُ الـدِّيـنِ لـلغَـمَـزات(٥)

زَرَعْـتَ لـنـا زَرْعـاً فـأَخْـرَجَ شَـطْأَهُ

وبِـنْـتَ ولَـمّـا نَـجْـتَـنِ الـثَّـمَـراتِ(٦)

---

(١) وا لهفي: كلمة يتحسّر بها على ما فات.

(٢) حاسر الرأس: عاريه. وحيال القبر: تلقاءه وأمامه.

(٣) تجاليد الإنسان: جسمه وبدنه. والفلاة: الصحراء الواسعة.

(٤) ضرح للميت: حفر له ضريحاً. ويريد «بالمسجدين»: المسجد الحرام بمكّة، وبيت المقدس. ورفات الميت: ما بلي وتكسّر من عظامه. يقول: لو أنّهم حفروا بأحد المسجدين ضريحاً لهذا الجسم لكان حريّاً بذلك، لأنّه خير جسم يدفن في خير بقعة من الأرض.

(٥) قضى: مات. والقناة: الرمح. ولين القناة: كناية عن الضعف والوهن. ويريد «بالغمزات»: المطاعن الموجّهة إلى الإسلام من أعدائه.

(٦) شطء الزرع: فراخه أو سنبله. وكنّى بالزرع: عمّا قام به الفقيد من ضروب الإصلاح، وبنت: بعدت.

فـواهـاً لـه ألَّا يُـصِـيـبَ مُـوَفَّـقـاً
يُـشَـارِفُـه والأرضُ غـيـرُ مَـواتِ[1]
مَـدَدْنـا إلى الأعْـلامِ بَعْـدَكَ راحَـنـا
فـرُدَّتْ إلـى أعْـطافِـنـا صَـفِـراتِ[2]
وجـالَـت بنـا تَبْغي سِـواكَ عُـيُـونُـنـا
فَـعُـدْنَ وآثَـرْنَ الـعَـمَـى شَـرِقـاتِ[3]
وآذَوْكَ فـي ذَاتِ الإلَـه وَأَنْـكَـروا
مَكَـانَـكَ حتّى سَـوَّدُوا الصَّـفَحـاتِ[4]
رأيْـتَ الأذَى فـي جـانِـبِ الله لَـذَّةً
ورُحْـتَ ولَـمْ تَـهْـمُـمْ لـه بِـشَـكـاةِ
لقـد كنتَ فِيهِمْ كَـوكـبـاً في غَـيـاهـبٍ
وَمَـعْـرِفَـةً فـي أَنْـفُسٍ نَـكِـراتِ[5]
أَبَنْتَ لنـا التَّـنْـزِيـلَ حُكْـمـاً وحِكْـمَـةً
وفَـرَّقْـتَ بيـن الـنُّـورِ والـظُّلُـمَـاتِ[6]

---

(١) الضمير في «له» يرجع إلى الزرع. ويشارفه: يشرف عليه. والأرض الموات: الجدبة التي لا تنبت. يخشى ألَّا يجد الزرع من يتعهّده بعد الفقيد مع خصوبة الأرض وقبولها لما يغرس فيها.

(٢) يريد «بالأعلام»: المشهورين من العلماء. والراح: جمع راحة، وهي الكفّ. والأعطاف: الخواصر. وصفرات، أي خاليات.

(٣) شرقات: أي محمرّات من البكاء.

(٤) يشير بهذا البيت وما بعده إلى المطاعن التي كان يوجّهها أعداء الفقيد إليه، وينشرونها في بعض الصحف تشهيراً به، وتحقيراً من شأنه.

(٥) الغياهب: الظلمات.

(٦) يشير بهذا البيت إلى الدروس التي كان يلقيها الأستاذ الإمام في تفسير القرآن.

وَوَفَّقْتَ بين الدِّينِ والعِلْمِ والحِجا
فأَطْلَعْتَ نُوراً مِن ثَلاثِ جِهاتِ
وَقَفْتَ (لِهانُوتُو) و (رِينانَ) وَقْفَةً
أَمَدَّكَ فِيها الرُّوحُ بالنَّفَحاتِ(١)
وخِفْتَ مَقامَ اللّهِ في كلِّ مَوْقِفٍ
فخافَكَ أَهْلُ الشَّكِّ والنَّزَعاتِ(٢)
وكَمْ لكَ في إِغْفاءَةِ الفَجْرِ يَقْظَةٍ
نَفَضْتَ عليها لَذَّةَ الهَجَعاتِ(٣)
وَوَلَّيْتَ شَطْرَ البَيْتِ وَجْهَكَ خالياً
تُناجِي إِلٰهَ البَيْتِ في الخَلَواتِ(٤)
وكم لَيْلَةٍ عانَدْتَ في جَوْفِها الكَرَى
ونَبَّهْتَ فيها صادِقَ العَزَماتِ(٥)
وَأَرْصَدْتَ للباغِي على دِينِ أَحْمَدٍ
شَباةَ يَراعٍ ساحِرِ النَّفَثاتِ(٦)

---

(١) هانوتو: جبرائيل هانوتو السياسي المؤرِّخ الفرنسيّ. ولد في ١٩ نوڤمبر سنة ١٨٥٣ م، وقد كتب مقالات في الطعن على الإسلام. ورينان: هو أرنست رينان الفرنسي، ولد في ١٧ فبراير سنة ١٨٢٣ م، وقد كان قسّاً كاثوليكياً، وهو مشهور بمطاعنه في الدِّين الإسلاميّ كصاحبه السابق، وقد ردّ الفقيد على مطاعنهما. وتوفّي رينان في سنة ١٨٩٢م. والروح: جبريل.

(٢) النزعات: الوساوس.

(٣) الإغفاءة: النومة. «ونفضت عليها» الخ، أي أنه خلع على اليقظة لذّة الهجعة فصار يتلذّذ من اليقظة تلذّذ الناس بالهجعة، أي النوم.

(٤) البيت: الكعبة.

(٥) الكرى: النوم. وصادق العزمات: من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي العزمة الصادقة.

(٦) أرصدت: أعددت وهيّأت. واليراع: القلم. وشباته: سنه. ونفثات القلم: ما يفيض به من كلمات تشبيهاً لها بما ينفثه الساحر في العقد.

إذا مَسَّ خَدَّ الطِّرْس فاضَ جَبِينُه
بأَسْطارِ نُورٍ باهِرِ اللَّمَعاتِ[1]

كأنَّ قرارَ الكَهْرَباءِ بِشقِّه
يُريع سَناهُ أيْسَرُ اللَّمَساتِ[2]

فيا سَنَةً مَرَّتْ بأعْوادِ نَعشِه
لأنتِ علينا أشْأَمُ السَّنَواتِ

حَطَمْتِ لنا سَيْفاً، وَعَطَّلْتِ مِنْبَراً
وأذْوَيْتِ رَوْضاً ناضِرَ الزَّهَراتِ[3]

وأطْفَأتِ نِبْراساً وأشْعَلْتِ أنْفُساً
على جَمَراتِ الحُزْنِ مُنْطَوِياتِ[4]

رأى في لَيالِيكِ المُنَجِّمُ مَا رَأى
فأنْذَرَنا بالوَيْلِ والعَثَراتِ[5]

وَنَبَّأهُ عِلْمُ النُّجومِ بحادِثٍ
تَبيتُ له الأبْراجُ مُضْطَرِباتِ

رَمَى السَّرَطانُ اللَّيْثَ، والليثُ خادِرٌ
ورُبَّ ضَعيفٍ نافِذِ الرَّمَياتِ[6]

(١) الطرس (بالكسر): الصحيفة التي يكتب فيها.

(٢) سناه: ضوءه ونوره: يقول: كأنَّ الكهرباء مستقرّة في شقّ هذا القلم، فمجّرد اللمس يظهر نوره.

(٣) حطمت: كسرت. وأوذيت: أذبلت.

(٤) النبراس: المصباح.

(٥) يريد «بالمنجّم»: أحد المنجّمين، وكان قد تنبّأ بوفاة الأستاذ الإمام في السنة التي توفّي فيها، وكتب ذلك في تقويمه السنويّ.

(٦) رمى السرطان... الخ، إشارة إلى أن المرحوم الإمام مات بالسرطان، وهو هذا الداء=

فـأَوْدَى بـه خَتْـلاً فمـالَ إلى الثَّرى
ومـالَتْ لـه الأَجْـرَامُ مُنْحَـرِفَـاتِ[1]
وشـاعَتْ تَعـازي الشُّهْبِ باللَّمْحِ بَيْنَهـا
عن النَّـيِّـرِ الـهـاوِي إلـى الـفَـلَواتِ
مَشَى نَعْشُـه يَخْتَـالُ عُـجْبـاً بـرَبِّـهِ
وَيَخْـطِرُ بيـن اللَّمْس والـقُـبُـلاتِ[2]
تَـكـادُ الـدُّمـوعُ الجـارِيـاتُ تُـقِلُّه
وَتَـدْفَـعُـه الأَنْـفَـاسُ مُسْتَـعِـراتِ[3]
بَكى الشَّـرْقُ فـارتَجَّتْ لـه الأَرْضُ رَجَّةً
وضـاقَـتْ عُيـونُ الـكَـوْنِ بـالعَبَـرَاتِ
فَفِي الهِنْـدِ مَحْزُونٌ، وفي الصِّينِ جـازِعٌ
وفـي (مِـصْـرَ) بـاكٍ دائـمُ الـحَسَـرَاتِ
وفي الشَّـامِ مَفْجُوعٌ، وفي الفُـرْسِ نادِبٌ
وفـي تُـونُسٍ مـا شِئْـتَ مِـنْ زَفَـرات
بَـكى عـالَـمُ الإِسـلامِ عـالِمَ عَـصْـرِه
سِـراجَ الـدَّيـاجِي هـادِمَ الشُّبُهَـاتِ[4]

= المعروف. والليث خادر: أي والأسد في أجمته. ويطلق السرطان أيضاً على برج في السماء يقابله برج الأسد الذي أطلق الشاعر عليه لفظ الليث. واستعمل الشطر الأوّل في المعنيين، كما يدل عليه سياق في الكلام في الأبيات التالي.

(١) أودى به: ذهب به. والختل: الخداع. والأجرام: الأفلاك.

(٢) ربه: صاحبه.

(٣) تقله: تحمله. ومستعِّرات: مشتعلات من الحزن.

(٤) الدياجي: الظلمات.

مَــلاذَ عَـيَــاييلٍ، ثِـمــالَ أرامِـلٍ
غِـيــاثَ ذَوِي عُـدْمٍ إمــامَ هُـدَاةِ[1]
فـلا تَنْصِبُـوا للنــاس تَـمثـالَ (عَـبْـدِهِ)
وإنْ كـانَ ذِكْـرَى حِـكْـمَـةٍ وَثَـبـاتِ
فـإنِّـي لأخْـشَى أنْ يَـضِـلُّوا فـيُـومِئـوا
إلى نُـورِ هـذا الـوَجْـهِ بـالسَّجَـداتِ[2]
فيــا وَيْـحَ للشُّــورَى إذا جَـدَّ جِـدُّهـا
وطــاشَـتْ بـهــا الآراءُ مُـشْـتَـجِـرَاتِ[3]
ويَـا وَيْـحَ لِلْفُتْيــا إذا قِيــلَ مَـنْ لَهــا؟
ويـا وَيْـحَ لـلخَـيْـراتِ والـصَّـدَقـاتِ
بَـكَـيْـنَـا عَـلى فَـرْدٍ وإنَّ بُـكَـاءَنـا
عـلى أنـفُسٍ لِـلَّهِ مُـنْـقَـطِعـات
تَـعَهَّـدَهَـا فَـضْـلُ الإمـامِ وَحـاطَـهـا
بـإحْسَـانِـه والـدَّهـرُ غيـرُ مُـواتِـي[4]
فـيــا مَنْـزِلاً فـي (عَيْـنِ شَمْسٍ) أظَلَّني
وأرْغَـمَ حُـسَّـادِي وغَـمَّ عُـداتِـي[5]

(١) الملاذ (بالفتح): الملجأ. وعيايل: جمع عيِّل (بتشديد الياء). وعيل الرجل: من يتكفّل بهم ويمونهم ويقوم عليهم. وثمال الأرامل: من يقوم بأمرهن ويعينهن. والغياث: المغيث والمعين. والعدم: الفقر.

(٢) يومئوا: يشيروا. وقد ردّ الشاعر بهذا البيت على ما اقترحه بعضهم من إقامة تمثال للأستاذ الإمام.

(٣) يريد «بالشورى» مجلس شورى القوانين وكان الفقيد عضواً به. وطاشت: انحرفت عن القصد. ومشجّرات: مشتبكات لا يتميَّز فيها الحق من الباطل.

(٤) حاطها: صانها وحفظها. والمواتي: الموافق المساعد.

(٥) عين شمس: ضاحية من ضواحي القاهرة معروفة، وكان فيها بيت الفقيد.

دَعـائِمُـه التَّقْـوَى وآسـاسُـه الهُـدَى
وفيـه الأيـادِي مَـوْضِـعُ الـلَّبِنـاتِ
عليـكَ سَلامُ اللَّهِ، مـا لَـكَ مُـوحِشـاً
عَبُـوسَ المَغـانِي مُقْفِـرَ العَـرَصَـاتِ[1][2]
لـقـد كنتَ مَقْصـودَ الجَـوانِـب آهِـلاً
تَـطُوفُ بِـكَ الآمـالُ مُـبْتَـهِـلاتِ[3]
مَـثـابـةَ أَرْزاقٍ، ومَـهْـبِطَ حِـكْـمَـةٍ
وَمَـطْلَعَ أَنْـوارٍ، وكَـنْـزَ عِـظاتِ[4]

رثاء مصطفى كامل باشا

مصـطفى كامـل مؤسس الحزب الـوطني في مصر وزعيم المنـاوئين للاحتلال، ولد في القاهرة سنة ١٨٧٤ وكان خطيباً سياسياً مصقعاً وصحافياً واسع النفوذ. واليه يرجع الفضل في إذكاء روح القومية المصريـة وتوحيـد صفوف المصريين للمطالبة بحقوقهم. توفي سنة ١٩٠٨، وهو في الـرابعة والثلاثين من عمره وكان يوم جنازته يوماً شعبيّاً مشهوداً، وقد عمّ الحزن عليه مصر بل جميع الأقطار العربيّة، ورثاه الأدب العربيّ في كلّ مكان. ومِمّا قيل فيه قصيدة حافظ التالية:

أيا قبرُ هذا الضَّيفُ آمالُ أُمَّةٍ
فَكَبِّرْ وَهَلِّلْ والقَ ضَيْفَكَ جاثيا

(١) دعائم البيت: عمده. والأيادي: النّعم. واللبنات: ما يضرب من الطين للبناء، الواحدة لبنة.
(٢) الموحش: الخالي الذي ليس به ساكن. ومغانيه: منازله التي كان ينزل بها ساكنوه، الواحد مغنى. وعرصاته: ساحاته.
(٣) منزل آهل: عامر بأهله. ومبتهلات داعية مُتَضَرِّعة.
(٤) المثابة: المرجع. أي إن الناس كانوا يرجعون إلى هذا البيت في طلب أرزاقهم.

عزيزٌ علينا أنْ نَرَى فيكَ (مُصْطَفى)
شَهيدَ العُلَى في زَهْرَةِ العُمْرِ ذاويا
أيا قَبْرُ لَو أنّا فَقَـدْنـاهُ وَحْدَهُ
لكانَ التَّأَسِّي مِنْ جَوَى الحزْنِ شافيا[1]
ولكِنْ فَقَدْنَا كُلَّ شَيْءٍ بِفَقْدِهِ
وَهَيْهَاتَ أنْ يأتي بِهِ الدَّهْرُ ثانيا
فيا سائلي أينَ المروءَةُ والوفا
وَأيْنَ الحِجَا والرأيُ؟ وَيْحَكَ ها هيا
هَنيئاً لهمْ فَلْيَأْمَنُوا كُلُّ صائِحٍ
فَقَدْ أُسْكِتَ الصَّوتُ الذي كان عاليا[2]
وماتَ الذي أحيا الشُّعورَ وَساقَهُ
إلى المجدِ فاسْتَحْيَا النُّفوسَ البواليا[3]
مَدَحْتُكَ لَمّا كُنْتَ حيّاً فلم أُجِدِ
وَإنّي أجيد اليوم فيك المراثيا
عَلَيْكَ، وإلاَّ ما لِذا الحزنِ شاملاً
وَفيكَ، وإلاَّ ما لِذا الشَّعْبِ باكيا[4]
يموتُ المداوي للنفوسِ ولا يَرَى
لما فيهِ مِنْ داءِ النُّفوسِ مُداويا

(١) التأسّي: التصبّر والتعزّي. وجوى الحزن: حرقته.
(٢) الضمير في «لهم»: للأنجليز.
(٣) استحياه أي أحياه والاستحياء (لغة): الاستبقاء، يقال: استحيا فلان فلاناً، إذا أبقاه حيّاً.
(٤) عليك، أي عليك الحزن، وفيك، أي فيك البكاء.

وَكُنّا نِياماً حينما كنتَ ساهداً
فَأَسْهَدْتَنا حُزْناً وَأَمْسَيْتَ غافيا
شهيدَ العلاء، لا زالَ صَوتُكَ بيننا
يَرِنُّ كما قَدْ كانَ بالأمْسِ داويا
يُهيبُ بنا هذا بناءٌ أَقَمْتَهُ
فلا تَهْدِموا باللّهِ ما كُنْتَ بانيا[1]
يَصِيحُ بنا: لا تُشعروا الناسَ أَنَّني
قضيتُ وأنَّ الحيَّ قد بات خاليا[2]
يُناشِدُنا باللّه ألاّ تَفَرّقوا
وَكُونوا رجالاً لا تَسُرُّوا الأعاديا
فَرُوحي من هذا المقام مُطِلَّةٌ
تُشارِفُكُمْ عَنّي وَإنْ كُنْتُ باليا[3]
فلا تُحزِنوها بالخلافِ فإنَّني
أخافُ عليكُمْ في الخلافِ الدَّواهيا
أجلْ، أيّها الدّاعي إلى الخير إنّنا
على العهدِ ما دُمْنا فَنَمْ أنْتَ هانيا
بناؤُكَ مَحْفُوظٌ، وَطَيْفُكَ ماثلٌ
وَصوتُكَ مَسْمُوعٌ، وإنْ كُنْتَ نائيا

---

(١) أهاب به: صاح به ودعاه.
(٢) قضى: مات.
(٣) شارفه، نظر اليه من عَلٍ.

عَهَدْنَاكَ لاَ تَبْكِي وَتُنْكِرُ أنْ يُرى
أخُو البَأْسِ فِي بَعْضِ المواطِنِ باكيا

فَرَخِّصْ لنا اليومَ البُكاءَ وفي غدٍ
ترانا كما تَهْوَى جبالاً رواسيا

فيا نِيلُ إنْ لَمْ تَجْرِ بَعْدَ وفاتِهِ
دَماً أحْمَراً لا كنتَ يا نيلُ جارِيا

ويا (مِصْرُ) إنْ لَمْ تَحْفَظِي ذِكْرَ عَهْدِهِ
إلى الحشرِ لا زالَ انْحلالُكِ باقيا

ويا أَهْلَ (مِصْرٍ) إنْ جَهِلْتُمْ مُصَابَكُمْ
ثِقُوا أنَّ نَجْمَ السَّعْدِ قد غارَ هاويا

ثلاثون عاماً[1] بل ثلاثون دُرَّةً
بجيد اللّيالي ساطعاتٍ زواهيا

سَتَشْهَدُ في التاريخِ أنَّكَ لَمْ تَكُنْ
فتًى مُفْرَداً بلْ كُنْتَ جَيْشاً مُغازيا

(١) توفي مصطفى كامل باشا عن أربعة وثلاثين عاماً، فالثلاثون في هذا البيت عدد تقريبيّ.

شفيق المعلوف

شاعر لبنانيّ، معاصر، ولد في زحلة سنة ١٩٠٥ م، وتثقّف تحت إشراف أبيه العلّامة عيسى، إسكندر المعلوف. أسهم بنشاط في «العصبة الأندلسيّة» التي أنشأها بعض الأدباء العرب المهاجرين إلى أميركا، وترأّسها مدّة من الزمن. له مؤلفات عديدة شعراً ونثراً، منها «رواية ليلى الأخيليّة»، و«نداء المجاذيف»، وملحمة «عبقر» التي تُرجمت إلى عدّة لغات أجنبيّة.

من أشهر قصائده في الرثاء تلك التي قالها في شقيقه فوزي.

أَهْـوَيْتُ أَبْحَثُ عَنْـهُ في التُّـرَبِ
تـاجٌ تَـدَحْـرَجَ عَنْ جَبِينِ أبـي
يـا مَوْتُ وَيْـكَ! صَفَعْتَ أيَّ أبٍ
شَيْـخٍ بِعِبْءِ سِنِيِّـهِ تَـعِبِ
عَـبَـثـاً تُـفَـتِّشُ تَـحْـتَ لِـمَّـتِـهِ
عَنْ شَعْـرَةٍ سَـوْدَاءَ لم تَشِبِ[1]
والأُمُّ! هل غُصَص النَّوَى تَرَكَتْ
في صَـدْرِهَـا شَـوْطاً لِمُنْتَهِبِ؟

---

(١) اللِّمَّة: الشعر الذي يتجاوز شحمة الأذن.

وا طُولَ حَسْرَتِها وَقَدْ وَلَدَتْ
لِلْمَجْدِ لا لِحَفَائِرِ التُّرَبِ!
فَوْزي، فَدَيْتُكَ، كُلُّ هاتِفَةٍ
في الصَّدْرِ تَنْطِقُ بآسْمِكَ العَذِبِ
باكَرْتُ قَبْرَكَ حِينَ رَوَّعَني
أنَّ القُبُورَ كَثِيفَةُ الحُجُبِ
فَوَدِدْتُ لَوْ كَفَّايَ بَعْثَرَتَا
كُوَمَ الزُّهُورِ عَنِ الثَّرَى الرَّطِبِ
فَأُزِيلَ عَنْكَ ثَرًى لُفِفْتَ بِهِ
مَنْ كانَ مِثْلُكَ لُفَّ بالسُّحُبِ
أتَغُورُ تَحْتَ الأرْضِ زَوْبَعَةٌ
نَارِيَّةٌ قُدْسِيَّةُ اللَّهَبِ!
مُذْ ضاقَ عَنْهَا الكَوْنُ وَآكْتَنَفَتْ
طَرَفَيْهِ مِنْ قُطُبٍ إلى قُطُبِ
سَخَّرْتَ أجْنِحَةَ النُّسُورِ لَهَا
وَدَفَعْتَها وَثْباً إلى الشُّهُبِ
لَهْفِي على نَسْرٍ تَوَغَّلَ في
تَحْلِيقِهِ يَوْماً وَلَمْ يَؤُبِ
نَسْرٌ جَرِيءُ الوَثْبِ مُكْتَمِلٌ
ريشُ الجَنَاحِ مُتَمَّمُ الأُهُبِ
ثَبْتُ التَّوَقُّلِ لا يَسُفُّ متى
وَطِىءَ الغَمَامَ بِمَخْلَبٍ صَلِبِ[1]

(١) التوقّل: الصعود. يسفّ يمرّ على وجه الأرض.

ذَيَّـاكَ فَـوْزِي فَهْـوَ ليس سِوَى
نَـسْـرٍ وَرَاءَ الغَـيْمِ مُـحْـتَـجِـبِ
لا هـذهِ الـرِّمَـمُ التـي فَـشِـلَتْ
وَثْبَـاتُهـا فَهَـوَتْ على الهِضَبِ[1]

* * *

وقال بمناسبة إزاحة الستار عن تمثال أخيه فوزي :

فَوْزِي، وَمَا لِي في الخُطُوبِ يَدَانِ
مـا هكَـذَا الأخَـوَانِ يَلْتَـقِيَـانِ
قَـرَّبْتُ صَدْري لِلْعِنَـاقِ فَلَمْ أَقَـعْ
إلاَّ عـلى قِـطَـعٍ مِـنَ الـصَّـوَّانِ
هَشَّتْ لَـكَ الأزْمَانُ قَبْـلَ وِلاَدهـا
فَـآخْلَعْ زَمَانـاً وَآتَّشِحْ بِـزَمَـانِ[2]
لِلَّهِ نَصْـبُـكَ فَهْـوَ أخْـلَدُ بُـرْدَةٍ
في الأرْضِ يَنْسُجُهَا الخُلُودُ الفاني[3]
نُصْبٌ خَفَضْتُ لَهُ الجُفُونَ كـأنَّما
نُصِبَتْ حِجَـارَتُـهُ على أجْفَـاني

(١) الرمم: ج رمّة، وهي ما بلي من العظام.
(٢) هشّت: تبسّمت وارتاحت، نشطت.
(٣) النصب: الصّنَم، وهنا التمثال. بردة: ثوب مخطّط يلتحفُ به.

الدكتورة
مي حنا سعادة

أديبة لبنانيّة، وُلِدَت في أميون (لبنان الشمالي) سنة ١٩١٦ م، ونالت شهادة التخصّص بأمراض النساء والتوليد سنة ١٩٤٢ م. مارست، ولا تزال، الطبّ والجراحة النسائيّة في طرابلس. لها ديوان شعريّ بعنوان «أوراق العمر».

لُقِّبتْ، بحَقّ، شاعرة الأمومة في الأدب العربيّ، نظراً إلى قصائدها الرائعة التي قالتها في أبنائها، وخاصَّة في ولدها الشهيد «نقولا» الذي استُشْهد في الحرب اللبنانية (١٩٧٥ م). تقول في إحدى قصائدها لابنها «حَنّا»:

لـو عَلَى عَيْني بِنَعْـلَيْـهِ مَشى
لَمْ أَقُـلْ يومـاً لَهُ: يـا ابني تَـأَنَّى

يمتاز رثاؤها لابنها «نقولا» باللّوعة الحارّة، والعاطفة المتدَفِّقة، فهي تتمثّل ابنها أبداً، وتخاطبه، وتصوِّره بحبّ أموميّ يفوق، في صدقه والتياعه كلّ وصف. وفيما يلي بعض النماذج منه:

الذكريات التائهة!

تَـلاَقَتْ ذِكْـرَيَـاتٌ في خَيـالي
أَتَنْسَى الـذِّكْرَيَـاتُ؟ مِنَ المحال

يُـؤَرِّقُنـي التســاؤُلُ عَـنْ فـراغ
فَـراغٍ في النَّهـارِ وفي اللَّيـالي
وَطِبِّي لا يُجيبُ وَلَـيْسَ يَـدْري
وَكُـتْبـي لا تَـرُدُّ عَـلى سُـؤالـي
ألا فَـامْـلأْ فَـراغـاً في عُيـوني
وفي رُوحي وعُـدْ مِثْـلِ الهِـلالِ
تَثـورُ الـذِّكْـرَيـاتُ تَمُـر سَكْـرَى
عَلَى عَيْني عَلى فِكْـري وَبـالي
فكُنْتَ تَعـودُ مِنْ بَعْـدِ افْتـراقٍ
وَتَحْمِلُني على وَهْـجِ الـوصـال
يُـزَنِّـرُنِـي ذِرَاعُـكَ يَـا نِقـولا
على خَصْـري تَشُـدُّ بـلا كِـلالِ
تَـدورُ البيتَ بي فَـرَحـاً وشَـوقـاً
تَميـلُ مِنَ اليمينِ إلى الشِّمـالِ
وَفُسْـطانـي يُـفَـتِّـحُ فيـه وَرْدٌ
وَتَـرْقُصُ في الهواءِ خيـوط شالي
فَـأثْمَـلُ فَـوقَ صَـدْرِكَ مِنَ عَبيـرٍ
وَأَصْـعَـدُ للسَّـمـاءِ وَلاَ أُغـالي
وَتُهْمِـلُ كُـلَّ حَسْنـاءٍ أمـامـي
تَعَثَّـرُ وَهْيَ تَمْشي فـي ظِـلالي
تُـصَـعِّـدُ إذْ تَـراكَ تَـنَـهُّـدَاتٍ
تَغـارُ منَ العِنـاقِ ومِـنْ دَلالي

من قال غاب؟

طَـال البعـادُ أمـا قَـدْ حـان لُـقْيـانـا
أيـا نـقـولا، فـإنَّ الـبُـعْـدَ أوْهـانـا
إنْ كُـنتُ أبـدو أمـامَ الـنَّـاسِ هَـادِئَـةً
في قلب أُمِّـكَ قَـدْ فَجَّـرْتَ بـركـانـا
مَنْ قـالَ: قَـدْ غـابَ؟ كَـلاَّ لم يغبْ أبـداً
أراهُ فـي مُـقْـلَـة الإنْـسَـانِ إنْـسـانـا
أَرَاهُ فـي كُـلِّ قَـوْمـيٍّ غـدا بَـطلاً
أراهُ فـي وَطَـنِ الأَحْـقَـادَ قُـرْبـانـا
أراهُ فـي الـطِّبِّ في كُتْبي على شَفَتي
أراهُ فـي زهـراتِ الـوَرْد ألـوانـا
أراهُ في الـطَّيـرِ في الأشجـار بـاسِقَـةً
أراهُ فـي نَـسَـمـاتِ الـفَـجْـر ألْـحـانـا
أراهُ حـولـيَ في رفْـقٍ.... يُـداعِبُـني
وفي سَـريـريَ عنْـدَ الصُّبْـح أحيـانـا
يُـسِـرُّ لِـلأُمِّ شَـكْـواهُ بـلا وَجَـلٍ
دَومـاً، وَيَـشْـرَحُ إشْـكـالاً وأشْـجـانـا
إنِّي سَـأَدْعـو ابْنَتي «ميّـا» - يُفـاجِئُني -
حُـبّـاً وَمَـكْـرَمَـةً مِـنِّـي وعـرْفـانـا!
إنَّ الـخُلودَ، أيـا ابـني، لـيسَ يُشـغلُني
رَضـيتُ فِـيكـمْ، وكـان القَـلْبُ مَـلآنـا

شُكْراً حبيبي لَقَدْ أَعْطَيْتَنَا بَطلاً
بِهِ نَتيهُ، وَقَدْ رَفَعْتَنا شانا
هَلْ قَدْ تَرَكْتك يوماً؟ كيف تَتْرُكُني
ثَكلَى لأَنْسُجَ للأَيّام أحْزانا؟
أصفُّ حَوْلَكَ وَرْداً كنتَ تَعْشَقُه
وَأَقْرأُ الكُتْبَ إنجيلاً وَقُرْآنا
كَمْ قَدْ طَلَبْتُ وكَمْ صَلَّيتُ جاثيةً
لِيَحْمِيَ اللَّهُ أَبطالاً وشجعانا
مضى شهيداً فَلِمْ أبكي عليه؟ لقَدْ
رَدَّ الوديعةَ لمّا الوقتُ قَدْ حانا
قد كان يملأُ «أميوناً» ببهجته
واليوم يملأُ كلَّ الكونِ إيمانا

أيلولُ ليس بقادمٍ

اليومَ لي بيتي ولي وَحْدي
وَلِيَ الدموعُ نَدًى ولي وَجْدي
الدَّمْعُ لاَ لتَفَجُّعٍ أَوْ حَسْرةٍ
للذِّكرياتِ فماؤها وِردي
إنّي لأذكرُ يومَ كنتُ عليلةً
وَأَرَدْتُ أن تمضي مع الوُلْدِ
فصدفتَ عن كل الرفاق ولُعْبهمْ
وبقيتَ قربي رافضاً بُعدي

كمْ قَدْ حَرَصْتُ عَلى هناكَ مُدلِّلي
من ذا يكيلُ لكَ الهنا بَعدي؟
إنّي جُمَعْتُ الياسَمِينَ أصوغُهُ
عِقْداً لجيدِكَ حامِلاً وجدي
ويُرادُ مِنّي أن أُغيِّر مَلْبَسي
تَغْييرُ لون الثَّوب هل يُجدي؟
ماذا يُبدِّلُ أسودٌ أو أبيضٌ
في القلبِ ما فيه مِنَ الوقْدِ!
هذي قميصُكَ قد لبستُ أما تَرى
فَكَأنَّها خيطتْ على قَدِّي
ركضتْ إليَّ وعانَقَتْني! هل دَرَتْ
أنّي حبيبةُ هذهِ البُرد
حتّى قميصُك هذِهِ الخَرْسا حَكَتْ
لي قِصَّة الأبطَالِ والمجدِ!
أتزورُ في أيلول أُمَّكَ مُهْجَتي؟
أهُنِاك وَصْلٌ بَعدَ ذا الصَّدِّ؟
إنْ لَمْ تَعدْ، أيلولُ ليس بقادمٍ
سِيَّان يَخفي الزَّهْر أوْ يُبدي

نزار قباني

شاعر من كبار الشعراء العرب المعاصرين، فلسطينيّ الأصل، سوريّ المولد والجنسيّة، لبنانيّ الإقامة والهوى. ولد في دمشق في السنة ١٩٢٣ م/ ١٣٤٢هـ، وتخرَّج في الجامعة السوريّة بإجازة في الحقوق، وخدم وطنه في السلك الدبلوماسيّ ما بين السنة ١٩٤٥ م، والسنة ١٩٦٦ م. يُعتبر من كبار المجدِّدين في الأدب العربيّ المعاصر. لقِّب بـ«شاعر المرأة»، واشْتُهِر بالغزل، لا بالرِّثاء، ولكن له قصيدة طويلة قالها في رثاء زوجته العراقيّة بلقيس عندما قُتلت بانفجار في بيروت، وهي تدلّ على أنّ عبقريّة الشاعر لا تقتصر على ضرب من ضروب الفنّ الغنائيّ، فالمُبدِع المُجيد يُبدع ويُجيد في أيّ فَنّ غنائيّ عزف على أوتاره. وفيما يلي بعض المقاطع من هذه القصيدة.

شُكْراً لَكُمْ. . .
شُكْراً لَكُمْ
فَحَبِيبَتِي قُتِلَتْ، وصار بِوُسْعِكُمْ
أنْ تَشْرَبُوا كَأْساً على قَبْرِ الشَّهيدَهْ
وَقَصِيدَتي اغْتِيلَتْ. . .
وَهَلْ مِنْ أُمَّةٍ في الأرْضِ

إلّا نَحْنُ تَغْتَالُ القَصِيدَهْ

* * *

بَلْقِيسُ . . .
كانَتْ أجْمَلَ المَلِكَاتِ في تاريخ ِ بابِلْ
بَلْقِيسُ . .
كانَتْ أطْوَل النَّخْلاَتِ في أرْض ِ العِراقْ
كانَتْ إذا تَمْشِي
تُرَافِقُهَا طَوَاوِيسُ . .
وتَتْبَعُها أيائِلْ . . . .
بَلْقِيسُ . . . يا وَجَعِي . .
ويا وَجَعَ القَصيدَةِ حينَ تَلْمَسُها الأنَامِلْ
هَلْ يا تُرَى . . .
مِنْ بَعْدِ شَعْرِكِ سَوفَ تَرْتَفِعُ السَّنابِلْ؟؟

* * *

يا نينَوى الخَضْراءَ
يا غَجَرِيَّتي الشَّقْراء
يا أمْوَاجَ دِجْلَةَ
تَلْبَسُ في الرَّبيع ِ بِساقِها
أحْلَى الخَلاخِلْ

* * *

بَلْقِيسُ!
لا تَتَغَيَّبي عَنّي

فَإنَّ الشَّمْسَ بَعْدَكِ
لا تُضِيءُ على السَّواحِلِ

* * *

بَلْقِيسُ
أيَّتُهَا الشَّهِيدَةُ.. والقَصِيدَةُ
والمُطَهَّرَةُ النَّقِيَّهْ...
سَبأٌ تُفَتِّشُ عَنْ مَلِيكَتِها
فَرُدِّي للجماهيرِ التَّحِيَّهْ

* * *

الموتُ في فنْجَانِ قَهْوَتِنا..
وفي مِفْتاحِ شِقَّتِنا...
وفي أزْهَارِ شُرْفَتِنَا...
وفي وَرَقِ الجَرَائِدِ...
والحروفِ الأبْجَدِيَّهْ...

* * *

بَلْقِيسَ...
يا عِطْراً بِذاكِرتي
ويا قَبْراً يُسَامِرُ في الغَمامْ
قَتَلُوكِ، في بيروت، مِثْلَ أيِّ غَزالَةٍ
مِنْ بَعْدِها.. قَتَلوا الكلامْ

* * *

بَلْقِيسُ

مُشْتاقون . . . مُشْتاقون . . مُشْتاقون .

والبيتُ الصَّغِيرُ . .

يُسائِلُ عَنْ أميرَتِهِ المُعَطَّرَةِ الذُّيولْ

نُصْغي إلى الأَخْبَارِ . . الأَخْبَارُ غامِضَةٌ

ولا تَرْوي فُضُولْ

* * *

بَلْقِيسُ . . .

مُذْبَحونَ حَتَّى العَظْمِ

والأَوْلَادُ لا يَدْرونَ ما يَجْرِي

ولا أَدْرِي أنا ماذا أَقولْ

* * *

هل تَقْرعين البابَ بَعْدَ دَقائِقٍ

هَلْ تَخْلَعِينَ المعطَفَ الشَّتَوِيَّ

هَلْ تَأْتِي باسِمةً . . .

ونَاضِرَةً . .

وَمُشْرِقَةً كَأَزْهَارِ الحُقُولْ

* * *

بَلْقِيسُ . . .

إنَّ زُروعَكِ الخَضْراءَ

ما زالتْ على الحيطانِ باكِيةً

وَوَجْهَكِ لَمْ يَزَلْ مُتَنَقِّلاً

بينَ المرايا والسَّتائِرْ
حَتَّى سجارتُكِ التي أشْعَلْتِها
لَمْ تَنْطَفِىءْ
ودُخانُها
ما زال يَرْفُضُ أنْ يُسافِرْ

* * *

بَلْقِيسُ . . .
مَطْعُونونَ مَطْعُونونَ في الأَعْمَاقِ
والأَحْداقُ يَسْكُنُها الذُّهُولْ
بَلْقِيسُ . .
كيفَ أَخَذْتِ أيَّامِي وَأَحْلامي
وَأَلْغَيْتِ الحدائِقَ والفُصولْ؟!!

* * *

يا زوجَتي . .
وحبيبَتي . . وقصيدتي . . وضياءَ عَيْني
قَدْ كُنْتِ عُصْفوري الجميلَ
فكيفَ هَرَبْتِ يا بلقيسُ مِنِّي؟

* * *

بَلْقِيسُ . .
هذا موعِدُ الشّايِ العِراقيِّ المُعَطَّرِ
والمُعَتَّقِ كالسُّلافَهْ
فَمَنْ الذي سَيُوزِّعُ الأَقْداحَ، أيَّتُها الزّرافَهْ

وَمَنِ الذي نَقَلَ الفُراتَ لبَيْتِنا
وورودَ دِجْلَةَ والرّصافَهْ

* * *

بَلْقِيسُ . . .
يا بَلْقِيسُ . . .
يا بَلْقِيسُ . . .
كُلُّ غَمَامَةٍ تَبْكِي عليكِ
فَمَنْ تُرَى يَبْكِي عَلَيَّ
بَلْقِيسُ . . . كيفَ رَحَلْتِ صامِتَةً
ولَمْ تَضَعِي يَدَيْكِ على يَدَيّا؟

* * *

بَلْقِيسُ . . .
أسْأَلُكِ السَّمَاحَ، فَرُبَّما
كانَتْ حَيَاتُكِ فِدْيَةً لِحَياتِي
إنِّي لأَعْرِفُ جَيِّداً
أنَّ الذينَ تَوَرَّطُو في القَتْلِ كانَ مُرادُهُمْ
أنْ يَقْتُلوا كَلِماتِي

* * *

نامي بِحِفْظِ اللّهِ، أيَّتُها الجميلَهْ
فالشِّعْرُ بَعْدَكِ مُسْتَحِيلْ
والأُنوثَةُ مُسْتَحِيلَهْ

سَتَظَلُّ أَجْيالٌ مِنَ الأطفالِ
تَسْأَلُ عَنْ ضَفائِرِكِ الطَّويلَهْ
وَتَظَلُّ أَجْيالٌ مِنَ العُشَّاقِ
تَقْرَأُ عَنْكِ أَيَّتُها المعَلِّمَةُ الأَصِيلَهْ...

جورج غانم

جورج غانم، شاعر لبنانيّ، ولد في بسكنتا سنة ١٩٤٣، ونشأ على حُبّ الشعْر في بيت والده الشاعر عبد الله غانم. عمل في التدريس والإدارة والصحافة، وحصّل ثقافة فنّيّة متنوّعة من رمزيّة إلى رومنطيقيّة إلى كلاسيكيّة. يتميّز أدبُه بأناقة الأسلوب وفرح الأجواء، وتنوّع المـواضيع. من مؤلفـاته: «أزهار في الخريف»، «نداء البعيد»، و«أصوات وراء الحدود».

من أشهر قصائده في الرثاء تلك التي قالها في والده.

والدي

١ ـ وَعُدْنا، وشَدَّ الفراغُ علينا
وأَقْفَرَتِ الأرضُ أنّى مَشَيْنا
وخِفْنا نُردّد اسمَكَ خِفْنا نُردِّدُ شِعْرَكْ
فذِكراكَ نَهْرٌ من النّار يَجري إلينا
وحينَ عرفناكَ أنَّكَ أمسيتَ وحدَكْ
بَكيناكَ حتّى بكينا خُلودَكْ بَعدَكْ.

٢ ـ ومَرَّ زمانْ
غيومٌ وريحٌ وغربهْ

ليالٍ تَطاوَلُ فيها الثَّوانْ
ولا صوتَ في بيتِنا لا ضِياءْ
نَسَجْنا على كلِّ عَيْنٍ مساءْ
ولَمْ يَبْقَ إلّا خيالُكَ نَقْبَعُ قربَهْ
وكان دخانْ .

٣ ـ أبي أين وجهُكَ أين يَراعُكْ
هجرتُ يراعيَ مُذْ غابَ عنّا شِراعُكْ
وأينَ الأحاديثُ بيني وبينَكْ
نُردِّدُها في العَشِيّ
وأبقى لَعينيكَ هذا الصَّبِيّ
يُدغدِغُ حضنَكْ
بَقاياكَ في البيت ثوبٌ عتيقْ
حذاءٌ جوارِبْ .

٤ ـ عصاً لا تُمَسُّ
دفاترُ نثرٍ وشِعرِ
غبارُ سَرابٌ وحزنُ
بقاياكَ جرحٌ بقلبي وقلبِ الشَّبابِ
وفي قلبِ أمّي جراحُ
بقاياكَ فينا رِياحُ .

٥ ـ أبي أينَ صوتُكَ أينَ الحنانْ
قطعتَ تُخومَ الزَّمانْ

وأمسى مكانُكَ ذاكَ المكانْ
نُرجِّعُ ذكراكَ لحناً ويُخْنَقُ لحنُ
أبي مِن بقاياكَ نحنُ
شبابٌ يُعيدُ الى العمر وجهَ الفُتُوَّهْ
أبي صِرْتَ في كلِّ فِكْرٍ نُبُوَّهْ.

٦ ـ أُناديكَ آناً أناديكَ أَمْسَا
لتُشرِقَ فوقَ نهارِيَ شمسَا
لتُنبِتَ في راحتيَّ زُروعَا
وتُوجِدَ في مُقلتيَّ الرَّبيعَا
فيخصبَ تُرْبُ. . .
تُعلِّمُني كيف أُعطي وكيف أُحِبُّ
تُعلِّمني كيف يحيا الأُباةُ
وماذا تُريدُ الحياةُ
أبي عندما تتردّى الشّرورُ
تُعلِّمُني أيَّ شَعْبٍ أُثيرُ



نُصبُ مدفني
إغريقي
في رودس

اعتاد الإغريق وضع أنصاب رخـاميّة على مـدافن موتـاهم تكريمـاً لهم وحفظاً لذكرهم. وتتكون هذه الانصاب من حجر مستطيل يزيّنه حفر ناتىء يمثّل الميت مع أحد أفراد عائلته في موقف حنان وعطف.

يحمل هذا النصب في أعلاه اسم كراتيو وتيماريستا وهو يمثّل شخصين في وقفة جانبيَّة، يد كلٍّ منهما على كتف الآخر في موقف تعزية وتأسٍّ. وقد أظهر النحّات طيّات الثوب الإغريقيّ بكلّ أمانة ودقّة، وأوحى بالهدوء والأسى المناسبين للموضوع ولموقع الحجر المدفنيّ.

مُتَفَرِّقات في الرِّثاء

(١)
مَرْثِيَة الأيَّام الحاضرة

الرِّيحُ ثقيلةٌ علينا، ورَمادُ أيّامِنا على الأرض. نلمحُ روحَنا في بَريقِ شَذْرةٍ أو على طَرَفِ خُوْذَة، وخَريفُ المَمالِحِ يتناثرُ فوقَ جِراحِنا، وما من شجرةٍ أو نَبْع.

الليّلُ يَتَخثَّرُ(١)، وفوقَ جُثَثِ العصافير تَدِبُّ(٢) طفولةُ النَّهارِ، والبحرُ يُغلِقُ في وجهِنا سريرَه، وعَبَثاً يَتزحزحُ البابُ المُوْصَدُ(٣). ونصرُخُ. ونحلُمُ بالبُكاء، ولا دمعَ في العيون، ونَلوي أعناقَنا تحتَ الرّيحِ والصَّقيع...

ونمضي، صدورُنا الى البحر، وفي كلماتِنا يرقُدُ نَحيبُ(٤)عصرٍ آخرَ، وكلماتُنا لا وريشَ لهـا، نُعانِقُ جُـزُرَ الوَحْـدَة، نَشُمُّ الغرابـةَ البِكْرَ في قَعْـرِ الهاوية، ونسمعُ مراكِبَنا ترسِلُ خُوارَها(٥) اليائسَ، واليَأْسُ هلالٌ طالعٌ، والشّرُّ في طفولتِه. وعندَ مَساقِطِ الأنْهُرِ في بحرِنا المَيْت، يَلدُ الليّلُ أعياداً وعرائسَ من الزَّبَد والرَّمْل، من الجَرادِ والرَّمْل.

---

(١) يتخثّر: يتراكم الدم ويفسد.
(٢) تدبّ: تزحف ببطء.
(٣) الموصد: المقفل.
(٤) نحيب: بكاء وعويل
(٥) الخوار: صوت الثور.

ونمضي في مُنحدراتٍ منَ الوحلِ والنَّحيبِ، والأرضُ تنزَفُ دماً في خواصِرِنا، الحياةُ هزيلةٌ في هذه الدّقائقِ من العمر، النّهارُ لا حواجبَ له، وليس للشّمسِ أهدابٌ طويلةٌ، وتحتَ أقنعـةِ الجليدِ والـرّملِ نكبَـرُ ويكبَرُ النّاس.

أدونيس
(بتصرّف)

رثاء تلميذة

قال الياس عَشيٍّ في رثاء تلميذة له سقطت بشظيَّة في الحرب اللبنانيَّة الأخيرة.

١ ـ عِنْدما يصير الوطن نَفقاً، تُلغى المسافَةُ بينَ وَجْهٍ وَوَجْه، وتَنطفىء العيون، وتُصبحُ غربَةُ الإنسانِ مشابهةً لِغُرْبَةِ الوَطنِ، ولِغُرْبَةِ الموتِ.

٢ ـ عِنْدما قالوا: لارا نَجَحَتْ لم أَنْفَعِلْ، فنجاحُ لارا كان واضحاً كَوضوحِ ابْتِسامتِها المزروعَةِ في أرجاءِ الصَّفِّ، وعندما قالوا: لارا ماتَت، لم أَبْكِ، فَمَوْتُ الياسمين قَدَرٌ لِتَبْقَى السماءُ مُعَطَّرَةً، وموتُ الياسمين لا يتوقَّفُ عِنْدَ سورِ الحديقة، بل هو مَوْتٌ نَبوِيٌّ لَهُ نَكْهَةُ الطفولَةِ التي لمْ يَرْحَمْها أَحَدٌ في هذهِ السَّنَواتِ العِجافِ. كيف تموتين، يا لارا، بشظيَّة وأحلامك كانت كالورد؟

٣ ـ تأكَّدي يا لارا أنَّ موتَك أَلْغَى عَقْلي، وحَوَّلني في لحْظَةٍ إلى مشاعِر متناقِضة مفكَّكة لا ضابط لها سوى ذكرى عامين كنتِ فيهما تلميذتي، وسأبقى مع بقيَّة الأساتذة والزملاء نذكر عينيك الوامضتين وشعرك المجدول كأنَّه الشلال، وغمَّازتين على الوجه تُسامرين بهما الحقول.

٤ ـ وبَعْدَ شَهْرٍ نعودُ إلى المدْرَسَةِ دونَكِ، وسنَفْقِدُك يا لارا، وسَنُحاوِل الاّ نَبْكي، فَأَنْتِ تكْرَهينَ البكاء، لكنَّنا نَعِدُك بأَنَّك ستَبْقين في قلوبنا جميعاً: جديلةً، وغمّازتَين، وشَعْراً.

الياس عشيّ

متفرّقات رثائية

إجْـرَحِ القَلْبَ واسْقَ شِعْرَكَ مِنْـهُ
فَـدَمُ الـقَلْبِ خَـمْـرَةُ الأَقْـلامِ

الياس أبو شبكة

* * *

نصيبُـك في حيـاتِـك مِنْ حَبيبٍ
نَصيبُـكَ في مَنامِـكَ مِنْ خَيالِ
رمــاني الـدَّهْــرُ بِــالأَرْزاءِ حَتَّى
فُـؤادي في غِـشــاءٍ مِنْ نِـبــالِ
فَصِــرْتُ إذا أصــابتني سِـهــامٌ
تَكَسَّـرَتِ النِّصـالُ على النِّصـالِ

المتنبيّ

* * *

قال ابن الجهم يرثي أولاده:

فــارَقْـتُكُـمْ، وَحَيِيتُ بَـعْـدَكُـمُ
مــا هٰكَـذا كــانَ الــذي يَجِبُ

إنّي لألْقَي النّاسَ مُعْتَذِراً
مِنْ أنْ أعِيْشَ، وَأنْتُمُ غُيُبُ

* * *

قال أمين نخلة في رثاء شبلي المّلاط:

إنْ تَرَى الرَّجْفَ حِيناً في أنامِلِهِ
فَذاكَ مِنْ طولِ مَسِّ الوَحْي لِلْقَلَمِ

* * *

وَأعُودُ بالذِّكْرَى على عَهْدٍ لَنَا
رَفَّتْ عليهِ نَضَارَةٌ وَسَنَاءُ
أيَّامَ نَضْحَكُ والمُنَى مَعْسُولَةٌ
ولِكُلِّ شَيْءٍ رَوْنَقٌ وَرُواءُ
نَحْتَالُ في رَوْضِ الشَّبابِ وَبُرْدِهِ
وَنَخَالُ أنّا وَحْدَنا الأحْيَاءُ

محمّد كوسا

* * *

روى الأصمعيّ أنّه رأى بالبادية امرأة ألصقت خدّها بقبر زوجها وهي تبكي، وتقول:

خَدّي تَقِيكَ خُشُونَةَ اللَّحْدِ
وَقَلِيلَةٌ لكَ، سَيِّدي، خَدّي
يا ساكنَ القَبرِ الذي بِوفاتِهِ
عَمِيَتْ عَلَيَّ مَسالِكُ الرُّشْدِ
اسْمَعْ أبُثُّكَ عِلَّتي فَلَعَلَّني
أُطْفِي بِذلِك حُرْقَةَ الوَجْدِ

* * *

تزوَّج الأمين بفتاة، وتُوفِّي عنها قبل أن يبني بها، فندبته ندباً حاراً، ومن قولها فيه:

أَبْـكِيــكَ لا لـلـنَّـعيـمِ والأُنُسِ
بَـلْ لِلْمَعالي والـرُّمْحِ والفَـرَسِ
أَبْكي عـلى سَيِّـدٍ فُـجِعْـتُ بِـهِ
أَرْمَـلَني قَـبْــلَ لَـيْـلَةِ الـعُــرُسِ

* * *

من أروع ما رُثي به الـزوجات وأشجـاه قول محمـد بن عبد الملك الزّيّات في زوجته:

أَلاَ مَنْ رَأى الطِّفْلَ المُفـارِقَ أُمَّهُ
بُعَيْـدَ الكَـرَى عَينــاهُ تَبْتَـدِرانِ[1]
رَأى كُــلَّ أُمٍّ وابْنَهـا غَيْــرَ أُمِّــهِ
يبيتــانِ تحت اللَّيــلِ يَنْتَجيــانِ
وبـاتَ وحيداً في الفـراشِ تَحُثُّهُ
بَــلابِلُ قَـلْبٍ دائِمِ الـخَفَـقَــانِ
فـلا تَلْحَيـاني إنْ بكيتُ فَــإِنَّمـا
أُداوي بهـذا الدَّمْـعِ مـا تَـرَيـانِ
وإِنَّ مكاناً في الثَّـرَى خُطَّ لَحْدُهُ
لِمَنْ كـانَ في قَلْبِي بِكُـلِّ مكـانِ

---

(١) يبتدران: يسيلان بالدموع.

أَحَقُّ مكـانٍ بـالـزِّيـارَةِ والهَـوَى
فَهَـلْ أَنْتُمـا إنْ عُجْتُ مُنْتَـظِرانِ

* * *

ماتت شريكة حياة محمود سامي البارودي، وهو منفيّ في سرنديب (جزيرة سيرلنكا)، فَحُرِم أولاده أباهم وأمّهم معـاً. واجتمع عليه بذلك أسى النفي، والفقد، وحرمان الأبناء، مِمّن كانت أنسهم في غيبته وأمنهم وسعادتهم، ولم يلبث أن بثّ حسرته المتوقّدة وحرقته المتأجّجة في مرثية طويلة يقول فيها:

يـا دَهْـرُ فِيمَ فَجَعْتَني بحـليلةٍ
كـانتْ خُلاصَـةَ عُـدَّتي وَعَتـادي
إنْ كُنْتَ لَمْ تَرْحَمْ ضَنايَ لِبُعْدِها
أَفَـلا رَحِمْتَ من الأَسَى أولادي
أَفْـرَدْتَهُنَّ فَلَمْ يَنَمْنَ تَـوَجُّـعـاً
قَـرْحَى العُيـونِ رَواجِفَ الأَكْبـادِ
يَبْكِينَ مِـنْ وَلَـهٍ فِـراقَ حَفِيَّـةٍ
كـانَـتْ لَهُـنَّ كَثـيـرَةَ الإسْعـادِ
فَخُـدُودُهُنَّ مِنَ الـدّمـوعِ نَـدِيَّـةٌ
وَقُلُوبُهُنَّ مِنَ الهُمـومِ صَـوادي

* * *

كان مالك بن الرَّيب في غزوة في خراسان، فحضرته المنيَّة، فناح على نفسه قائلاً:

فَيـا صاحِبَيْ رَحْلي دَنـا المـوتُ فَـاحْفِـرا
بَـرابِـيَـةٍ، إنِّي مُـقـيـمٌ، لـيـالـيـا

وَخُـطًّا بِـأَطْـرافِ الأَسِنَّـةِ مَضْجَعي
وَرُدًّا عـلى عَـيـنَـيَّ فَـضْـلَ رِدائـيـا
خُـذاني، فَجُـرّاني بِبُـرْدِي إليـكُـما
وَقَـدْ كُنْتُ، قَبْلَ اليـوم، صَعْباً قيـاديا
تَـفَقَّـدْتُ مَـنْ يَـبْـكـي عـليَّ فَـلَمْ أَجِـدْ
سِوى السَّيْفِ والـرُّمْـحِ الـرُّدَيْنِيِّ بـاكيا
وبـالـرَّمْـلِ مِنّـا نِسْـوَةٌ لَـوْ شَهِـدْنَني
بَـكَـيْـنَ وَفَـدَّيْـنَ الـطَّبيـبَ الـمُـداوِيـا
عَـجـوزي وَأُخْتـايَ اللّتـان أُصيبتـا
بِـمَـوْتي وبِـنْتٌ لي تـهـجُ البـواكِـيـا
ومـا كـانَ عَـهْـدُ الـرَّمْـلِ مِنّي وَأَهْلِهِ
ذَمِيمـاً ولا بـالـرَّمْـلِ وَدَّعْتُ قـالِيـا[1]
يَـقـولـون: لا تَبْـعَـدْ وَهُمْ يَـدْفُـنـوني
وَأَيْـنَ مَـكـانُ الـبُـعْـدِ إلاّ مـكـانيـا

* * *

أوصَى أبو العتاهية بأن يُكتب على قبره هذه الأبيات الأربعة:

أُذْنَ حَـيٍّ تَـسَـمَّـعِـي
اسْـمَـعِـي ثُـمَّ عِـي وَعِـي
أَنـا رَهْـنٌ بِـمَـضْـجَـعِـي
فَـاحْـذَرِي مِثْـلَ مَـصْـرَعِي

---

(١) القالي: المُبغِض الكاره.

عِشْتُ تِسْعينَ حِجَّةً
ثُمَّ وافيتُ مِضْجَعي
لَيْسَ شَيْءٌ سِوى التُّقَى
فَخُذي مِنْهُ أو دَعى

* * *

الفهرس

من الرّثاء في العصر العبّاسيّ

من الرّثاء في العصر الأندلسيّ

من الرّثاء في العصر الحديث

متفرقات رثائيّة